obeikandl.com

obeikandl.com

§ الفصل الأول

أساطير اليهود

عُرف بنو إسرائيل بطبيعتهم الانفجارية، خصوصًا فيما يتعلق بأعدادهم وتضخيم أزماتهم ومعاناتهم، أي أنهم يعملون بالمثل القائل "يجعلوا من الحبة قبة"، وقد لازمتهم هذه الطبيعة مدى حياتهم، والتي يقول فيها بعض علماء النفس أنها ترجع في أساسها إلى رغبتهم في استدرار العطف والشفقة بتكريس المسكنة، باللجوء إلى الكذب وتزوير الحقائق والادعاءات التي لا أساس لها، فباتت هذه الطبيعة تُسيطر على حياتهم اليومية وعلى آدابهم وثقافاتهم، فكان لا مناص من أن يجنح إليها مدونو التوراة والتلمود لتُصبح جزءًا من معتقداتهم الدينية وتُصبح ذات تأثير كبير في كتاباتهم وتدوينهم التوراة والتلمود على حد سواء.

تقول الروايات التوراتية والتلمودية التي وضعها أحبار اليهود على مدار ثلاثمائة عام ويزيد، إن عدد بني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى عليه السلام من مصر في عهد الملك المصري (رعمسيس الثاني) كان ستمائة ألف شخص، بين كهل وشاب وامرأة وطفل، ينتمون إلى أسباط بني إسرائيل أي رؤساء قبائلهم الاثنتي عشرة،

جميعهم عبروا بحر "سوف" البحر الأحمر، بعد أن شق لهم موسى بعصاه مياه بحر سوف، وفتح لهم اثنتي عشرة طريقًا على عدد قبائلهم كما تقول الرواية التوراتية، والسؤال الذي لا بد من طرحه هنا هو: كم كان بالضبط عدد قبائل بني إسرائيل وكم كان عدد العشائر الصغيرة وفروع العائلات منهم؟ جاءت الأقوال في التوراة والتلمود بإن عدد القبائل التي خرجت مع موسى من مصر كانت (١٢) اثنتي عشرة قبيلة، إلا أن هذا الرقم هو رقم رمزي، بل رقم سحري، فإذا ما أجرينا عدًّا بسيطًا نجد أن هناك خمس عشرة قبيلة على الأقل، وهي: قبائل روبين وسيمون ولاوي وإساخر وزبلون ودان وجاد ونفتالي وعاشر ويوسف وإفرايم ومنسي وبنيامين، وهناك اعتقاد لدى عدد من المؤرخين المعاصرين بأن "العموريين" كانوا ينتمون لقبائل بني إسرائيل، إلا أن المؤكد بأن المديانيين كانوا فعلاً من بني إسرائيل، وقد جاءت سلالات موسى عليه السلام منهم، وإن لم يكن موسى نفسه واحدًا منهم، حيث تزوج من المديانيين الذين شاركوا بني إسرائيل في المراعي في برية سيناء وجنوب الأردن. كما أن هناك قبائل يهودية صغيرة تُعرف بعشائر "الكينات"، تذوبت بمرور الزمن في القبائل اليهودية الأخرى واندثر اسمها، لهذا يكون عدد القبائل اليهودية الفعلية التي تعرف ببني إسرائيل خمس عشرة قبيلة خلافًا لتعداد التوراة.

عدد آخر من المؤرخين الغربيين قرروا بأن إبراهيم الخليل، الجد الأعلى لبني إسرائيل، حسب التاريخ التوراتي الأسطوري، كان "عموريا" ولم يكن "أراميا" كما جاء في التوراة، وكان العموريون قد أخبروا عن إبراهيم وأخبار أبنائه إسحق ويعقوب في قصصهم التي جاءت بنفس القصص والروايات التي تذكرها التوراة، ولكنها بأسلوب يختلف نوعًا من حيث النصوص، وتتطابق من حيث المضامين، والجدير بالذكر أن روايات العموريين سبقت التوراة بحوالي ١٤٠٠ عام على الأقل، وسوف أعود للحديث عن هذه المسألة في فصل لاحق من هذا الكتاب.

ما تقدم يحاكي الروايات التوراتية والتلمودية التي وضعها أحبار اليهود على مدار ما يزيد عن ألفين وخمسمائة عام، وهو ما ارتأوه لتدوين تاريخهم وديانتهم ومعتقداتهم وسيرة طوائفهم، وأدوارهم في الحياة العامة لمنطقة الشرق الأدنى، غير أن المؤرخين المعاصرين يؤكدون بأن اليهود هم أكثر شعوب الكرة الأرضية في التاريخ عنادًا وتشبثًا بالأساطير، ويقولون بإن هناك في بلاد الكنعانيين مدينة الخليل أو "حبرون" تقع على مسافة ٢٠ ميلاً جنوب مدينة القدس التاريخية، وترتفع حوالي ٣٠٠٠ قدم عن سطح البحر، وتقوم على عدد من التلال الجبلية، وهناك في هذه المدينة كهف يعرف بكهف "المكفيلة"، الذي يضم قبور ما يسمى بالآباء الجوالين، وفي مقدمتهم ضريح إبراهيم الخليل عليه السلام الذي

يضم رفاته، والذي ادعى اليهود دون برهان قاطع على أن إبراهيم الخليل هو المؤسس الأول للعقيدة الدينية اليهودية والجنس اليهودي، وضريح إبراهيم يزدوج معه ضريح "سارة" زوجته ابنة أخيه "ناحور"، وفي ذات المبنى قبران آخران لابنه اسحق وزوجته "رفقه" وبالفناء يوجد قبران آخران الأول لحفيد إبراهيم "يعقوب" وزوجته "ليئه"، وفي الساحة الخارجية للمبنى قبر "يوسف" ابن يعقوب وهذا يُشير إلى تاريخ مضى عليه اليوم حوالي ٤٠٠٠ سنة.

يصف المؤرخون مدينة الخليل بأن لها جمال خلاب، وأنها تعطي الزائر انطباع السلام والسكون، الذي غالبًا يكمن في المقدسات القديمة في المدينة، ولكن حجارة هذه المقدسات هي الشاهد الصامت على الكفاح الطويل الذي يعتقد أنه كان على مدار أربع ألاف سنة من النزاعات الدينية والسياسية المستمرة، وكانت بدورها مزارًا ومعبدًا يهوديًا وكاتدرائية بيزنطية ومسجدًا وكنيسة ثم مسجدًا مرة أخرى، أقام حولها الملك هيرودس سورًا ملكيًا يرتفع إلى أعلى حوالي أربعين قدمًا، بحجارة مجدوعة يبلغ طول بعضها ٢٣ قدمًا، وقد زين صلاح الدين الأيوبي في وقت لاحق مزار إبراهيم الخليل عليه السلام بمنبر للوعظ والخطبة الأسبوعية في المسلمين..

- الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل -

يدَّعي اليهود أنه كان هناك مجزرة اقترفها العثمانيون في مدينة الخليل، طالت اليهود عام ١٥١٨، غير أن العلماء أفادوا بأنه كانت هناك طائفة يهودية صغيرة قد تأسست، وحافظت على وجود ضعيف لها يتكون من اليهود الأرثوذكس (المتعصبين دينيًا)، وتلموديين، وطلاب المذهب الصوفي الباطني الذي عرف بمبدأ "الكبالا"، كما ضمت الطائفة اليهودية هناك الزاهدين الذين كانوا يجلدون أنفسهم بقسوة حتى تسيل دمائهم على الحجارة المقدسة، وكانوا جميعًا ينتظرون مجيء "المسياح" المخلص، وفي زمن الانتداب البريطاني

وعام ١٩٢٩ بالتحديد تعرض اليهود في الخليل إلى هجوم شرس من أهل المدينة العرب، وهجوم عربي آخر عام ١٩٣٦، ولاقى العديد من اليهود حتفهم في الهجومين، خصوصًا "طلاب التوراة" من اليهود المقيمين في الخليل، واليهود الوافدين لدراسة التوراة والعقائد الدينية اليهودية، حيث كانت الخليل تضم أكبر كلية دينية يهودية في العالم في ذلك الحين.

هكذا عندما يزور المؤرخ مدينة الخليل في هذا الزمان يسأل نفسه أين كل أولئك الناس الذين أقاموا يومًا في ذك المكان؟ أين الكنعانيون والاديميون؟ أين الهيلونيون القدماء؟ أين الرومانيون والبيزنطيون؟ لقد اختفوا جميعهم مع الزمن، لكن ظل اليهود هناك في الخليل، لذلك أصحبت الخليل تعدُّ مثالاً عن العناد اليهودي على مدار أربعة ألاف عام، وهي أيضًا تمثل تناقض اليهود الفضولي نحو ملكية الأرض والاحتلال، ليس هناك من حافظ لفترات طويلة على الوجود وبالتعلق بزاوية معينة على سطح الكرة الأرضية كاليهود، فكانت الخليل أول مكان سجله تاريخ بني إسرائيل في قضية شراء الأرض، الإصحاح الثالث والعشرون من سفر التكوين في التوراة يتحدث عن كيف تمكن إبراهيم الخليل من شراء كهف "المكفيله" والأرض المحيطة به ليدفن فيه زوجته "سارة"، واعتبروا أن إبراهيم الخليل أرسى بهذا مبدأ امتلاك الأراضي في بلاد الكنعانيين، بعد أن نسبوا كذبًا أنفسهم إلى إبراهيم الخليل وذريته.

المؤرخون المعاصرون يتساءلون: من كان إبراهيم هذا ومن أين جاء إلى الخليل؟ ما جاء في سفر التكوين فقط هو الإثبات الوحيد أن إبراهيم كان موجودًا وكانت نصوص ذلك قد جمعت على شكل كتابة ربما بعد حوالي ألف سنة من أيام حياته المفترضة، وقيمة الكتاب المقدس كسجل تاريخي كانت مسألة جدل مكثف على مدى القرنين الماضيين التاسع عشر والعشرين، وكانت حتى العام ١٨٠٠ وجهة النظر السائدة بين العلماء وغير العلماء أيضًا أن الكتاب المقدس هو مجموعات من روايات التوراة، استلهمت إلهيًا وأنها مفصلة أحيانًا وغامضة أحيانًا أخرى، غير أن علماء كثيرون من اليهود والمسيحيين قد حافظوا لقرون عديدة عليها واعتقدوا أن أسفار الكتاب المقدس العهد القديم احتوت على مقاطع تفهم على أنها حقيقة رمزية أو استعارة أدبية.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي برز هناك وبازدياد نقد فني خطير للتوراة، فالعلماء اليهود الألمان مثلاً رفضوا فكرة الاعتراف بالعهد القديم كسجل تاريخي وصنفوا أكبر أجزائه كأساطير دينية، الأسفار الخمسة "البنتاتويخ" التي نسبت لموسى عليه السلام قدمت الآن كأساطير شفهية تناقلتها القبائل العبرانية المختلفة والتي وضعت كتابة بعد المنفى البابلي في النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد.

هذه الأساطير (كما كان يدور الجدل) كانت قد حررت بعناية، بعد أن تم خلطها وتثبيتها لتعطي تبريرًا تاريخيًا وإجازة إلهية للمعتقدات الدينية والممارسات والطقوس الخاصة ببني إسرائيل، التي سبقت السبي البابلي، من أجل تأسيسها، والأشخاص الذين ذكروا في الأسفار المبكرة لم يكونوا أشخاصًا حقيقيين، ولكن كانوا أبطالاً أسطوريين، أو شخصيات مركبة تدل على تعدد القبائل اليهودية.

وهكذا ليس فقط إبراهيم والآباء الجوالين، ولكن موسى وهارون ويشوع قد شملتهم الأساطير فلم يعودوا جوهريين أكثر من هيركوليز، وكانت الإنجازات الموسوية حول التوحيد قد تآكلت، وإعادة كتابة تاريخ العهد القديم عملت بها نوعية دقيقة مخضبة بمعاداة السامية.

العمل الجماعي لعلماء التوراة اليهود الألمان أصبح أرثوذوكسيًا، وهذا من تعاليم "يوليوس فيلهاوزن" (١٨٤٤ – ١٩١٨) الذي احتوى كتابه العظيم (مقدمات نقدية لتاريخ بني إسرائيل القديم) الذي نشر للمرة الأولى عام ١٨٧٨، وحتى لمدة نصف قرن تقريبًا هيمن "فيلهاوزن" ومدرسته على تدريس التوراة، وكثيرًا من تأثيرات فكره انعكس على قراءات المؤرخين، وحتى علماء القرن العشرين مثل (م. نوث) و(أي الت)؛ استبقوا هذا النهج المتشكك رافضين انتزاع التقاليد الأسطورية والجدلية بأن الإسرائيليين

أصبحوا شعبًا على أرض كنعان فقط وليس قبل القرن العشرين قبل الميلاد وفتح بلاد الكنعانيين، إنما ذلك كان من أساطيرهم الكبرى، حيث أنهم كانوا قد تسللوا إلى أرض كنعان، كما يقترح علماء آخرون أن أصول إسرائيل يكمن في سحب جالية متعصبة دينيًا من المجتمع الكنعاني اعتبروا فاسدين، هذه والنظريات الأخرى بالضرورة تتجاهل كل التاريخ التوراتي قبل سفر القضاة، الذي كان بذاته مزيجًا من الحقيقة والخيال. فالتاريخ اليهودي كان قد خضع للجدل ولم يكتسب أسسًا جوهرية من أسس الحقيقة حتى عصر "صموئيل" و"داود".

يقول العلماء والباحثون في تاريخ الشرق الأدنى، إن المؤرخين نادرًا ما يهدفون أو حتى يرغبون أحيانًا في توضح التاريخ التوراتي الذي يتحدث عن معتقدات وتحاملات وتحيزات إضافة إلى الإجحاف والتعصب، حيث أن هذه الأمور تدخل إلى صلب حياة الإنسان وهي المساحة التي تكون فيها الموضوعية بالذات صعبة للغاية، إن لم تكن مستحيلة التحقيق، وأكثر من هذا فإن خصوصيات الباحثين وأعمالهم تقوم على أساس تفعيل وتحديد مصادر الموارد، وإيجاد الدوافع الخاصة بالذين جمعوا بعض التصنيفات الأصلية، ليعيدوا تشكيل الأحداث في ضوء التاريخ المقارن.

مع التطور في علوم الأركيولوجيا الحديثة برزت قوة معوضة لانحياز علماء الأثار المتعلقة باستعمال النصوص القديمة للاهتداء بها، وتأكيد البقايا المادية، وقد جرت أبحاث بهذا الشأن في اليونان وآسيا الصغرى، فالاكتشافات والحفريات في طروادة وكفوسس ومواقع أخرى في مينون وكريت والمدن اليونانية القديمة الأخرى والروايات الهومرية، واتخاذها تسجيلات تاريخية مكَّنت العلماء من التوصل إلى عناصر الحقيقة الكامنة تحت القشرة الأسطورية، وهكذا في فلسطين وسوريا والتنقيب في المواقع القديمة فيهما وترجمة أعداد كبيرة من التسجيلات الإدارية والقانونية، قد جنحت بقوة إلى إعادة تخزين قيمة أسفار الكتاب المقدس المبكرة كروايات تاريخية، ويضيف العلماء بأنهم الآن يرون نصوص الكتاب المقدس (التوراة) أنها معقدة جدًا وغامضة، لا تقود إلى معرفة الحقيقة، بل لا تقود إلى شيء البتة.

ويضيف العلماء بأن اليهود هم الشعب الوحيد في العالم اليوم الذي يمتلك سجلاً تاريخيًا ولو أنه غامض ومبهم فيما يتعلق بالأماكن، مما يسمح لهم بالعودة في تتبع أصولهم الواغلة في الزمن، واليهود الذين أنتجوا "التوراة" بشكلها الحالي فكروا أن عرقيتهم ترجع إلى إبراهيم الخليل الذي يقولون إنه المؤسس الأول ليهوديتهم، وهذا يوصلهم إلى جدهم الأعلى "آدم". وفي ضوء معرفتنا الحالية ينبغي

الرجوع إلى أقدم إصحاحات سفر التكوين في التوراة على أنها تخطيطية ورمزية أكثر من كونها حقيقية.

الفقرات الواردة في الإصحاح التاسع من سفر التكوين تذكر فيما يتعلق بـ "نوح" والميثاق الأول مع الإله بالإشارة إلى أرض كنعان، إلا أن الباحثين وجدوا أن هذه المواضيع تتكرر أكثر وباستمرار عندما يأتي الباحث إلى قوائم الأسماء لما بعد الطوفان وصولاً إلى الآباء الجوالين، ويمكن للباحث الآن العودة إلى السؤال المحير عن هوية "إبراهيم" وعن منبعه، أما التوراة فتقول في الإصحاحات (١١ – ٢٥) من سفر التكوين: إن أبراهام في الأصل "أبرام" قد جاء من سلالات نوح، هاجر من "أور" الكلدانية أولاً إلى "حران"، ومن ثم إلى أماكن مختلفة ومتعددة في بلاد الكنعانيين، وسافر إلى مصر أيام الجفاف في فلسطين، ولكنه عاد إلى كنعان لتنتهي حياته في "حبرون" حيث اشترى هناك أرضًا لأول مرة.

هذا يعني أن تأسيس التاريخ التوراتي بالإشارة إلى الكلدانيين، هي مسألة عفا عليها الزمن، حيث أن الكلدانيين لم يتوغلوا في جنوب العراق حتى نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، ووجود إبراهيم الخليل تاريخيًا يرجع إلى وقت أبكر من ذلك بكثير ويشير إلى بداية الألفية وليس نهايتها، ثم أن ذكر الكلدانيين في التوراة كان فقط لغرض الإثبات لقراء التوراة أن الكلدانيين كانوا في الألفية الأولى قبل

الميلاد، غير أنه على جميع الوجوه لا يشك العلماء بأن إبراهيم الخليل جاء من "أور" كما تذكر التوراة، وهذا يعطي دلالات كثيرة عنه، بغض النظر عن كتابات العمورين حول قصة إبراهيم والتي سبقت التوراة بحوالي أربعة عشر قرنًا.

أما الحفريات التي أجريت مؤخرًا في العراق بينت أن "أور" كانت على أعلى المستويات الثقافية والعلمية، ووجد عالم الأثار البريطاني "وولي" في قبر "ميسكالامدج" بطل الأرض الطيبة؛ خوذة ضخمة صنعت على شكل باروكة من الذهب الخالص، ووجد أيضًا "زقورة" ضخمة يبدو أن قصة برج بابل استوحيت منها، كان هذا من أعمال الملك "اورمامو" من العائلة الملكية الكلدانية (٢٠٦٠ - ١٩٥٠) قبل الميلاد الذي كان رجل قانون ورجل إعمار.

يعتقد بعض المؤرخين أنه من المحتمل أن يكون إبراهيم ترك "أور" بعد وقت ذلك الملك، وأن يكون قد حمل معه إلى بلاد كنعان قصص "الزقورة" إضافة إلى قصة الطوفان المبكر.

يذكر المؤرخون المعاصرون استنادًا إلى المكتشفات الأثرية والأبحاث وقراءات الأركيولوجيين أنه عندما بدأ إبراهيم الخليل عليه السلام تجواله في منطقة الشرق الأدنى الطويل، الذي سبق استقراره في مدينة الخليل، لم يكن توقيت الآباء الجوالين عبثًا كما كان يفترض سابقًا، سفر التكوين يتحدث عن فترة ما قبل الطوفان ويخلص إلى

النتيجة بأن ذلك التاريخ كان تخطيطي أكثر من مجرد قوائم ملوك أو أسماء للآثاريات، قوائم الفراعنة التي أعطاها "مانيتو" الكاهن المصري الذي عايش العصر الهيليني ٢٥٠ سنة قبل الميلاد تؤكد أكثر صدق التاريخ المصري بثقة معقولة، وتعيد إلى العائلة الملكية الأولى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، بيروس الكاهن البابلي يتفق بشكل غير مرتب مع "مانيتو" فيما يتعلق بقوائم الملوك التي جاءت بعد الطوفان تعطي قائمة ملكية مشابهة لقوائم ملوك العراق، فإذا ما تم فحص قوائم الأسماء التي جاءت في سفر التكوين نجد مجموعتين، في كل واحدة منها عشرة أسماء، إلا أن التواريخ تختلف بين الأصل القريب للنص العبري للترجمة السبعينية اليونانية، وبين أسفار موسى "البنتاتويخ"، عند السامريين كان التجميع شبيه بتسجيلات ثقافية غير توراتية، والتوقيت التوراتي الطويل قريب جدًا لحياة ملوك المسماريين قبل الطوفان، لكن بيروس لديه عشر قوائم للملوك الذين سبقوا التوراة بزمن طويل تعطي فقط ثمانية ملوك، ولكن بيروس لديه عشرة تناسب طابع سفر التكوين، الرابط بينهما ربما يكون أبراهام الذي يعتقد أنه أحضر معه التقليد إلى بلاد الكنعانيين، أو الذي نسبه له اليهود لإثبات انتمائهم إلى هذا الجد الأعلى كما تسميه التوراة.

أما ما جاء في التوراة اليهودية فقد أهمل حسب رأي المؤرخين دور إبراهيم الخليل في منطقة الشرق الأدنى عمومًا، إذ اكتفت

بإبراز إبراهيم ودوره في ذلك العالم القديم، وحصره في الفرار من الملك النمرود وحرق إبراهيم في نار النمرود، وزواجه من سارة وهجرته الغامضة إلى بلاد حران، ثم إلى الخليل ليستقر فيها ويرى منامًا يطلب منه الله يذبح ابنه (اسحق)، بعد تجواله في مصر وزواجه من "هاجر" المصرية، ثم يتوفى في مدينة الخليل، وهذا يعتبر انتقاص من دور إبراهيم العظيم في المنطقة.

علماء الأثار والمؤرخون يقولون حول موضوع المبالغة وتضخيم الروايات والقصص اليهودية، في قصة الخروج والتيه في برية سيناء أربعين عامًا وعدد من خرجوا مع موسى: "كل ما نعرفه عن هذه القبائل بدرجة من التأكيد أنهم تقاسموا الحياة الصحراوية القاسية جيلاً بعد جيل، وكانوا يتخاصمون فيما بينهم، يحاربون بعضهم البعض في مناسبات وظروف متباينة، يرتحلون من مكان لآخر عبر البوادي في منطقة تعرف اليوم بمنطقة الشرق الأدنى، ليس فقط لمدة أربعين عامًا، كما هو معروف في الكتاب المقدس "التوراة" ولكن لمئات ومئات من السنين، يتطلعون دائمًا للحصول على العسل واللبن في أرض كنعان، وكان على مقربة منهم جنة عدن بسهولها الخضراء في وادي الأردن والأراضي والمراعي الخصبة في دلتا النيل، وأشجار التين والنخيل وحقول القمح الذهبية والشعير والأبقار الحلوب في فلسطين، وقمم الجبال المكسوة بالثلوج في لبنان والأرز يكسو جبال الجليل الأعلى في شمال فلسطين، كان

بنو إسرائيل ينظرون إلى تلك الجنة ويفكرون كيف يشربون من مياهها العذبة وأياديهم ترتعش من جفاف الصحراء، وكيف كانت نساؤهم تبكي من الجوع والعطش، نظروا إلى هذه الثروات الهائلة أمامهم ولم يتمكنوا من الاستمتاع بها لأنها لم تكن لهم، كانت محاطة بحراسات شديدة ضمن مدن محصنة بالأسوار العالية القوية والجيوش التي تعد بالآلاف من الجنود المدججين بالأسلحة، تردفهم قوة هائلة من أشد رجال الصحراء العربية. كان الكنعانيون العرب إذ ذاك على مستوى رفيع من التغذية وحسن اللباس وبحبوحة ورغد العيش، على درجة عالية من الثقافة، شعب حضاري متحضر يعيش في أمن واستقرار خلف الأسوار المنيعة، كانوا ينظرون إلى الصحراء حولهم فيروا بيوت الشعر السوداء الرثة التي يقطنها المرتحلون والبدو فنادوهم بالعبرانيين، والكلمة تعني في لغتهم – أولئك الذين عبروا إلى بلادهم من الجانب الآخر من النهر - أي نهر الأردن. فكان المرتحلون البدو يتوسلون إلى الكنعانيين من أجل شربة ماء وطعام يسدون به جوعهم، الكنعانيون كرماء بطبيعتهم يستجيبون لتوسلاتهم من واقع العطف والرحمة، أطعموهم وسقوهم وأكرموهم وأحسنوا إليهم، حاول العبرانيون الذين يعانون من العطش والجوع وحالات اليأس عبور النهر إلى بلاد كنعان، ومن هناك انتشروا إلى برية سيناء، ومنذ لحظات اليأس التي لازمت حياة بني إسرائيل في الصحراء زاد تطلعهم إلى العسل واللبن

المتوفر في بلاد الكنعانيين، فنسبوا أنفسهم إلى إبراهيم الخليل وإلى إسحق ويعقوب الذين سبقوهم في العبور إلى بلاد كنعان بعد تجوال وترحال طويلين في البوادي الصحراوية، هذا إذا ما أخذنا بروايات العموريين وقصصهم عن إبراهيم الخليل وأبنائه إسحق ويعقوب، ولا علاقة لهم بهم على الإطلاق، إنما انتسبوا إليهم بغرض الدخول إلى بلاد كنعان، فلفقوا هذه الرواية التي هي في الأصل رواية عمورية قبل التوراة بأربعة عشر قرنًا، وهنا لا بد أن نذكر رواية توراتية تحكي قصة ابتداع اسم "إسرائيل" وخلعه على يعقوب عليه السلام، فقد أورد مدونو التوراة القصة التالية في سفر التكوين ورواية تكرار الوعد السماوي ليعقوب في الإصحاح ٣٥ من سفر التكوين أيضًا، تقول التوراة: "في طريق عودته من فدان آرام وبعد أن قطع مخاوض نهر الأردن باتجاه بلاد كنعان، التقى يعقوب في الليل في الجبل برجل طلب أن يتصارع معه، فأجلس يعقوب زوجتيه إلى سفح الجبل وأخذ يتصارع مع ذلك الرجل واحتدم الصراع بينهما، وعند الفجر استطاع يعقوب أن يأسر الرجل من وركه الأيمن، فقال له: أطلقني.. لقد طلع الفجر ولا أستطيع البقاء في الأرض! فقال يعقوب ومن تكون حتى لا تستطيع البقاء في الأرض، قال أنا الله! فقال يعقوب: ما دمت أنت الله فلن أطلق حتى تمنحني بركة. قال: ما اسمك؟ قال: يعقوب اسمي، قال الله: اسمك من هذا اليوم يصبح "يسرائيل" لأنك صارعت الله والناس وقدرت وهذه

بركتي لك"، وكان يعقوب ابن مائة عام عندما تحول اسمه من يعقوب إلى إسرائيل حسب هذه الرواية التوراتية.

وهنا لا بد من تفسير هذا الاسم الذي يتكون من مقطعين الأول يسر بمعنى (أسر) فعل ثلاثي بمعنى أخذ أسيرًا، والثاني (ائيل) بمعنى الإله، وبجمع المقطعين يصبح معنى هذا الاسم يسرائيل (آسر الإله)، الغريب هنا في هذه المسالة أن يعقوب يصارع الله العلي القدير ويتمكن من أسره، والأغرب أن الله يصارع شخصًا لا يعرفه فيسأله عن اسمه ليباركه.. فهل يعقل هذا؟ وهل تعقل كل الرواية من أساسها، علمًا بأن التوراة أوردت في أكثر من موضع أن يعقوب كان ضعيفًا يخاف من ابن أخيه الصغير ويفر من وجهه، فكيف له أن يصارع الله؟ جاء في الإصحاح الـ ٣٥ من سفر التكوين ما يلي: "وظهر الله ليعقوب أيضًا حين جاء من فدان آرام وباركه وقال له اسمك يعقوب ولا يدعى اسمك فيما بعد بيعقوب بل يكون اسمك إسرائيل، فدعا اسمه إسرائيل وقال له الله أنا الله القدير، أثمر وأكثر، أمة وجماعة أمم تكون منك وملوك سيخرجون من صلبك، والأرض التي أعطيت إبراهيم واسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطي الأرض، ثم صعد الله عنه في المكان الذي فيه تلكم معه".

انطلت هذه الروايات على الكنعانيين العرب في فلسطين وصدقوها ولا زال العرب يصدقون هذه الروايات المختلفة الملفقة، ولهذا

السبب سمح لهم الكنعانيون آنذاك بالإقامة بينهم، ولم يعتبروهم غرباء، إلا أن هذه القبائل البدوية أخذت منذ وجودها بين الكنعانيين بالعمل من أجل الحصول على الخيول والسلاح الحديدي من الحثيين فأدخلوا العربات بعجلات خشبية طوقت بأطر حديدية، وكانت العربات قد عرفت في المنطقة بعد دخولها إلى مصر واستعملها المصريون ثم انتشرت إلى البلدان المجاورة، وهكذا لم يحافظ الإسرائيليون القدماء على عهودهم مع الكنعانيين الذين أكرموهم ولم يقدروا ذلك الإكرام الذي قدمه الكنعانيون لهم، فقد عرفوا منذ أقدم عصور التاريخ بأنهم لا يرعون العهود ولا يلتزمون بالمواثيق وإنهم دائمًا يسيئون لمن يحسنون لهم، كما هو حاصل الآن على أرض الواقع في فلسطين، حيث أقاموا بادئ ذي بدء بين العرب أقلية، وعاشوا بينهم بسلام، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى طبيعتهم، فقاموا بالمجازر ضد الفلسطينيين الآمنين، ولا زالت مجازرهم متواصلة منذ عام ١٩٤٨، ومن غير المتوقع أن تصل إلى نهاية.

حروب القبائل اليهودية مع بعضهم البعض ومع غيرهم؛ كانت قاسية وشديدة جعلت أخلاقهم الدينية تجنح إلى عبادة آلهة متعددة عرفت بالآلهة الطوطمية، أي آلهة من الحيوانات مثل: الثور والأفعى والأسد والذئب.. الخ، وقد أرهبوا الكنعانيين مما أجبر الكنعانيين على إعادة إغلاق أسوار مدنهم في وجه القبائل اليهودية الشرسة

وأرسلوا إلى ملك مصر يطلبون منه النجدة والعون، وقالوا في رسائلهم لملك مصر:

"العبرانيون برابرة الصحراء، برابرة ما وراء النهر يهاجموننا، ساعدنا أيها الملك عليهم"، إلا أن ملك مصر لم يستجب لنداءات الكنعانيين حيث كان منشغلاً في صد الغزاة الذين عبروا إلى مصر من البحار بسيوف حديدية وعربات بعجلات أطرها من الحديد، وخوذ حديدية أيضًا، وعربات نقل لم تكن جميعها متوفرة لدى المصريين، لهذا كان في ذلك الزمان حدثان عظيمان أولهما: السيف الحديدي وثانيهما: دخول الحصان إلى ساحات الحروب، أما الحدث الثالث كما يقول الأركيولوجيون فكان رجل يسمى "موسى"، ويضيفون بأن اليهود بدون موسى لم ولن يكونوا شيئًا يذكر، ويعنون من الناحيتين التاريخية القديمة والإحساس المعاصر، ليس بنو إسرائيل وليست القبائل الصحراوية وليس العصر البرونزي ولا العصر الحديدي المتقدم، فالبرابرة الذين زحفوا على فلسطين من الصحراء وتغلبوا على الكنعانيين لم يكونوا أدوات موسى ولم يكن موسى أداتهم بل كانت أدواته هو اليهودي، وقد دخل موسى التاريخ بصفة يهودي وهكذا تبعه اليهود فدخلوا التاريخ، حتى أصبحوا يشكلون جزءًا منه ويصفون موسى بقولهم: "عبر التاريخ كله لم يوجد أي شخص هادئ مثل موسى، ولم يتمكن أي رجل آخر أن يضع هذا الختم على مجموعة من الناس لا يتجاوز عددهم عدد

أصابع اليدين وأن يعطيهم الخلود، لهذا فإن موسى المارد ظل عبر الأجيال ليس رجلاً عاديًا فحسب بل قوة وذاكرة".

تساءل علماء الثقافة والمفكرون خلال المائة عام الماضية فيما يتعلق بالعهد القديم من الكتاب المقدس "التوراة" من كان موسى؟ ومن لم يكن موسى؟ لكنهم فيما يبدو أهملوا حقيقة هامة وهي أنه قبل ألفي عام في زمن "فيلو الحكيم" العلاَّمة اليهودي في مدينة الإسكندرية المصرية، كان هناك أيضًا علماء ومفكرون وباحثون في التوراة، ولم يشك "فيلو" أو غيره من العلماء الذين عاصروه بوجود موسى، حيث كانت توجد في الإسكندرية مكتبات مصرية عظيمة، وبالأخص مكتبة إسكندرية الضخمة، تعج بالمواد الكثيرة عن موسى عليه السلام، وقد دمرت هذه المكتبات تمامًا، كما دمرت المكتبة اليهودية في القدس، ومهما توافر لدينا من كتب على موسى فإن الكتب الحقيقية عنه لم تعد متوفرة، باستثناء بعض الكتابات الفرعونية التي عثر عليها علماء الأثار مؤخرًا، والتي تحكي جانبًا من حياة موسى، وبما أن هذه الكتابات والاكتشافات العصرية لا تتفق كثيرًا مع ما ورد في التوراة والكتب السماوية الأخرى ومنها القرآن الكريم، وقد يرجع هذا إلى عدة أسباب يعتقد أن أهمها:

١- أن تكون الكتابات المكتشفة من الأبحاث والتنقيبات الأركيولوجية الحديثة، غير دقيقة في تفسيراتها ومعانيها التي فهمها الخبراء الأركيولوجيون.

٢- أن تكون الأخبار التي وردت في الكتب السماوية عن موسى عليه السلام وقومه تحتاج إلى تفسير أوسع مما هي عليه!

٣- نحن كمسلمين نؤمن بأن ما أخبرنا الله عنه في كتابه الكريم (القرآن) هو حقيقة ثابتة لا تبديل لها، غير أننا نؤمن أيضًا بأن الله ترك مساحات واسعة للعقل البشري ليعمل في اكتشاف المكنون من كنوز العلم وما جاء في كلام العزيز الحكيم، فهناك احتمال كبير أن تكون بعض التفسيرات القرآنية بحاجة إلى تفسيرات أدق مما هي عليه للوصول إلى الحقيقة وهذا لا يتعارض مع إيماننا بالله، بل على عكس ذلك فالبحث والتقصي والاجتهاد في التوصل إلى حقيقة القول قد أمرنا الله بها، أو أن نردها إلى الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه، إن غمض أو التبس الأمر علينا.

٤- الكتابات والنقوش التي وجدت على المخلفات الأثارية القديمة لا تتعارض كثيرًا مع ما جاء في الكتب السماوية بل تؤكدها ولكن بأسلوب آخر، وعلينا أن نمعن النظر فيها قبل رفضها، فحين تقول الكتابات القديمة أن أخت الملك الفرعون الإله، فهذا لا يتعارض مع الآية الكريمة في القرآن التي يقول الله سبحانه فيها عن فرعون (..

فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى)، والكتابات تصفه بالملك الإله كما لقب نفسه، وكان يأمر الناس بأن ينادوه بهذا اللقب الإلهي، كما تقول الكتابات المكتشفة أن أخت الملك واسمها - الأميرة إنيخاس آمون - هي التي التقطت موسى الطفل من مياه النيل أثناء رحلة تنزه نهرية مع نديمها في القصر، فهذا أيضًا لا يتعارض مع الكتب السماوية، فجميعها أكدت أن موسى ألقي في نهر النيل لكي لا يبطش به الفرعون، الذي كان يأمر بقتل مواليد ذكور الهكسوس الجدد، ومنهم مواليد بني إسرائيل، الذين كانوا يشكلون جزءًا لا يتجزأ من الهكسوس المهزومين للفراعنة، بعد حروب بينهم وبين مصر العليا استمرت ٥٠ عامًا انتهت بهزيمتهم وانتصار المصريين عليهم، وأخذهم عبيدًا وخدمًا للفراعنة في مصر العليا، وصدور القرار الفرعوني بقتل المواليد الجدد الذكور للهكسوس كي لا تقوم لهم قائمة، وهذا أيضًا يتفق مع ما جاء في الكتب السماوية وإن اختلف الأسلوب، ومن الطبيعي أن يختلف الأسلوب البشري عن الأسلوب الرباني في النصوص وفي المضامين والجوهر، وتجنبًا لسوء التفسير قد يتعرض له هذا الرأي فلقد رأينا عدم التعمق في شرح تاريخ حياة النبي موسى وما وجد في الكتابات القديمة عن حياته، ونكتفي بالإشارة إلى ما يلزم معرفته المبدئية عن ذلك التاريخ الشخصي لنبي موسى عليه السلام دون الدخول في تفاصيل موسعة تفاديًا لسوء الفهم أحيانًا، حيث أننا لسنا بالأساس نعرض

للحديث دينيًا عن معتقدات الأمم في منطقتنا العربية، بقدر ما نشير إلى النواحي التاريخية، مع الإيماء إلى ما نراه ضروريًا لاستعراض العقائد الدينية اليهودية الواردة في كتبهم وعلى رأسها التوراة والتلمود.

في هذه المسألة يقول المؤرخون ومنهم مؤرخون يهود أيضًا "أن الحقيقة المجردة أننا لا نعرف من هو موسى فيما يخص أصوله وجذوره العرقية، عدد قليل من المفكرين لا زالوا يتساءلون عن الحقيقة، ربما كان اسمه من أسماء الطبقات الأرستقراطية المصرية في عهود الفراعنة أو إنه من البيت المالك في مصر، فالاسم (موشيه) هو اللفظ العبري لموسى، ويعني بالهيروغليفية المصرية (أعطي طفلاً)، واسم موسى هو نصف اسم كان يطلق على الإله الذي يهب الطفل، وتعود تسمية الأطفال إلى تلك العهود التي كان المصريون يعتقدون أن الإله يحب الأطفال وينحاز لهم، ولهذا كان رعمسيس الثاني ملك مصر الذي عرف موسى في عهد حكمه كان يسمى "راع موشيه" والاسم راع يعني (إله الشمس) و(موشيه) يعني أعطي طفلاً، لهذا يكون اسمه (إله الشمس أعطي طفلاً) مع إضافة الأسماء الملكية.

وتساءل المؤرخون والباحثون الأركيولوجيون فيما إذا كان موسى من العائلة الملكية التاسعة عشرة في مصر؟ أم أنه التقط من الماء

على يد أخت الملك؟ وهل كان من سلالات اللاويين؟ أم أنه من قبائل الكينات المتذوبة في بني إسرائيل؟ أو كان من أهل زوجته مديانيًا؟ وهل كان حقًا قائدًا عظيمًا في جيش المشاة المصري ومن ضباط العربات؟ وهل تزوج موسى من أميرة كوشية كما تقول التوراة؟ وربما لا تكون كوش أرضًا بل اسما يطلق على صنف معين من البشر! ففي اللغات العربية القديمة كلمة "كوشي" تعني أسود البشرة، أي من الأجناس الأفريقية السمراء، وربما تعني التوراة بزواج موسى من امرأة كوشية أنها امرأة سمراء وليست أرضًا بعينها".

وحول عرقية موسى أود هنا أن أورد رواية نشأة موسى كما وردت في المكتشفات الأثرية الحديثة والكتابات التي وجدت على المسلات المصرية القديمة، وقد نقلها المؤرخون بعضهم من اليهود الأوروبيين والأمريكيين مما يعطي هذه الرواية نوعًا من المصداقية التاريخية، حيث أن هؤلاء المؤرخين تجردوا من كل العوامل التي قد تلعب دورًا في التحيز لجهة على حساب جهة أخرى، وكرسوا دراساتهم للوصل إلى الحقيقة المجردة.

تبدأ القصة عندما كان موسى في العاشرة من عمره، وكانت أخت الملك رمسيس الثاني واسمها الأميرة (إنيخاس آمون) هي الأم المعروفة لديه، باعتبارها الأميرة التي تعهدته بالتربية والإعداد

ليكون أمير أمراء مصر، فحين كان موسى في سن العاشرة أرسلت الأميرة في طلبه ليمثل أمامها، وكان موسى إذ ذاك يسرح ويمرح منهمكًا في ألعابه كأي طفل في سنه في حدائق القصر الملكي الكبير، وفورًا ترك كل ألعابه وأسرع إليها حيث كان حبه لها كبيرًا ولا يعصى لها أمرًا، كيف لا وهي المرأة الأميرة التي رعته خير رعاية وكان له منزلة كبيرة في قلبها كأم.

قالت له عند وصوله مداعبة:

- أنت ولد غير صالح! لماذا لا تحضر لأمك إلا حين أرسل في طلبك؟

قال موسى:

- لا يا أمي.. أنا أكن لك كل الاحترام والتقدير وها أنا هرولت للمجيء إليك استجابة لطلبك..

قالت الأميرة:

- أعلم يا ولدي ولكني أردت مداعبتك بعض الشيء..

قال:

- ما الأمر يا أمي؟

قالت:

- انظر إليَّ فقد بلغت من العمر ما بلغت، انظر إلى ترهل جسدي والجيوب تحت جفوني، لم أعد تلك الأميرة الجميلة كما كنت من قبل!

قال موسى:

- أنت لا زلت جميلة يا أمي، على الأقل في نظري أنا، أنا أراك أجمل نساء العالم.

قالت:

- أشكرك يا ولدي على مجاملتك لأمك التي تحبك وتريد أن تصنع منك أكبر الأمراء في مصر! لقد وافق أخي الملك الإله رعمسيس الثاني على مقابلتنا أنا وأنت ليراك ويضع يده الملكية الإلهية على رأسك وربما يباركك الإله رعمسيس!

رد موسى قائلاً:

- لا يا أمي أنا أخاف من هذا الملك فربما يعيدني إلى الماء..

obeikandl.com

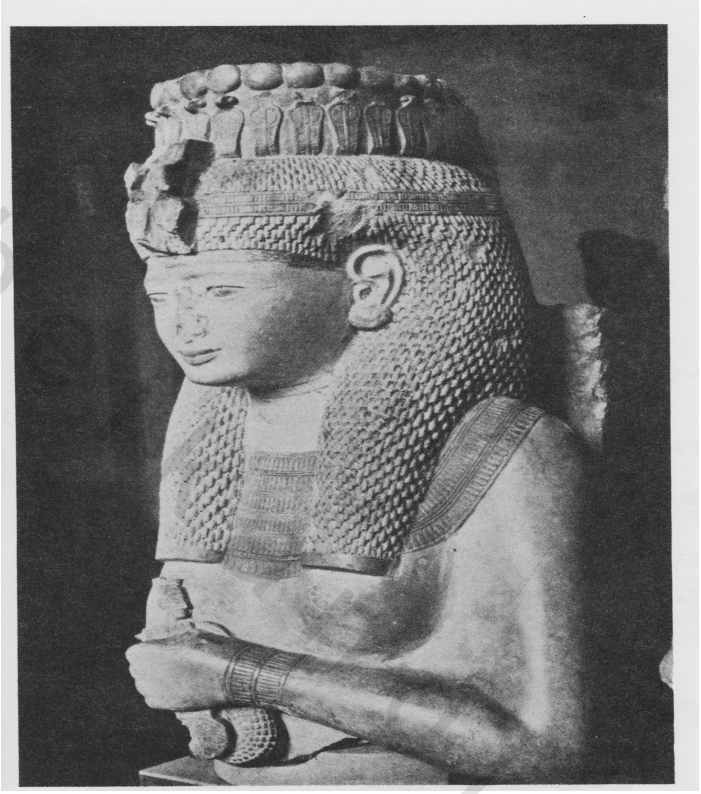

انيخاس – آمون أخت الملك رعمسيس الثاني التي تعهدت موسى عليه السلام بالتربية واتخذته ولدًا لها – الأسرة الملكية التاسعة عشرة

وهنا وقع عليها قوله كالصاعقة وقالت بغضب:

- من أخبرك هذا، لا شك أنهم الكهنة، قل من الذي أخبرك وسأقطع عنقه بيدي.

قال:

- لن أقول لك عن أي كاهن من كهنة المعبد، أنا علمت أنك التقطيني من الماء وإحساسي يشير إلى رعمسيس الملك الإله ربما يعيدني إلى المياه من حيث جئت.

قالت:

- لا يا ولدي هذا هراء ولا تصدق الكذابين الذين لا هم لهم سوى الوقيعة بين أبناء الدم الملكي.

قال موسى:

- أما آن الأوان لتخبريني من هو والدي الحقيقي؟ وأطلب منك أن تقولي لي من هو والدي وأين هو الآن؟.

قالت:

- نعم.. يحق لك الآن بعد بلوغك هذه السن أن تعرف من هو أبوك، فانا أمك الأميرة "انيخاس آمون" وكان أخي الملك رعمسيس الإله قد تبناك وأنت طفل رضيع.

قال:

- إذن رعمسيس الثاني الملك الإله هو والدي؟

قالت:

- نعم.. هو والدك بالتبني والكل يعلم ذلك في القصر ويعلمون أنك ابن الملك رعمسيس وأنك أمير من أمراء القصر، لهذا تذهب معي غدًا إليه ليباركك، فأنا أريد أن أصنع منك أمير أمراء مصر، أريده

أن يرى بنيتك القوية وجسدك المبني بناء الرجال الأشداء، ولهذا أريدك أن تلبس فقط ثوب جلد النمر البسيط ليظل معظم جسدك مكشوفًا ليرى بناءك العضلي وجمالك الجسماني، اذهب الآن يا ولدي وامرح في حدائق القصر واحضر إلي غدًا لنذهب سويًا وسوف أعلمك الطقوس الخاصة بمقابلة الملك الإله قبل أن نذهب إليه.

في اليوم التالي حضر موسى إلى الأميرة انيخاس آمون التي بدورها شرحت له الطقوس والبروتوكولات الخاصة بالمقابلة، قالت:

- يجلس الملك على عرش خاص على منصة في أعلى القاعة وتقف الحاشية في أسفل الدرجات المؤدية إلى منصة العرش، وعندما يشير إليك بالتقدم إليه، عليك أن تنبطح وتزحف على بطنك على الدرجات صعودًا لتصل إلى أقدامه فتقبلها وتنتظر إشارته برفع رأسك والنظر إليه، فافعل ذلك يا ولدي عله يباركك..

وذهبا معًا إلى القاعة الملكية، ولما أشار إليه الملك بالصعود إليه زحف موسى على بطنه إلى أن وصل إلى أقدام الملك وقبلها، أومأ له الملك برفع رأسه والنظر إليه.. ففعل، سأله الملك قائلاً:

- أراك كبرت فكم عمرك الآن؟

قال موسى:

- عمري عشر سنوات..

مد الملك يده إلى رأس موسى وباركه، بعدها عاد موسى مع الأميرة إلى جناحها الملكي.. فقالت له:

- إني سعيدة أن أراك وقد باركك الملك الإله، اذهب الآن وامرح في الحدائق كما شئت ولكن لا تنسَ موعد الدرس العسكري والتدريبات الملكية، واظب على حضورها لتكون قويًا كي تستحق إمارة مصر، ودعني أناديك من الآن "أمير مصر الأول".

كانت الأميرة تعاني من ألم شديد وصداع في الرأس وبذل طبيبها الخاص كل ما في وسعه لمعالجة الصداع والألم إلا أنه لم يفلح، فاستقدم لها الملك طبيبه الخاص الذي كان أبرع الأطباء في عصره، ورأى الطبيب بعد إجراء الفحوصات اللازمة أن الحالة تتطلب إجراء عملية جراحية في الرأس لاستئصال ورم خبيث في الدماغ، ولكنه حذر من أن نجاح العملية ضعيف للغاية، حيث لم تكن تتوفر له أدوات جراحية مناسبة، كما أن العمليات الجراحية كانت تجرى للمرضى في قاعات واسعة ومفتوحة من أجل توفير الضوء اللازم، حيث لم تكن تتوفر إنارة صناعية مناسبة كما هو اليوم، غير أن الأميرة قبلت بالمجازفة ووافقت على إجراء عملية جراحية خطيرة كتلك، اتخذت كل الإجراءات المناسبة للعملية وتحدد موعدها، وفي الموعد حضرت الأميرة إلى قاعة العمليات وحضر معها موسى، ولكن الأطباء لم يسمحوا لأحد بالدخول إلى القاعة، وبقي موسى في الخارج ينتظر بفارغ صبر نتيجة العملية الجراحية للأميرة،

استمرت العملية أكثر من عشر ساعات متواصلة غير أن الأطباء فشلوا في إنقاذ حياتها.

صعق موسى لوفاة الأميرة التي اعتبرها والدته واعتبر رعمسيس الثاني الملك الإله أنه قاتل والدته الأميرة، وحقد على رعمسيس وأقسم بأن ينتقم منه شخصيًا في يوم من الأيام، وتم تحنيط الأميرة وإيداعها الناووس الخاص بها، وقد تطلب التحنيط والإيداع في الناووس حوالي ثلاثة أشهر، كان خلالها موسى منعزلاً منطويًا على نفسه، يعتصره الألم والمرارة والحزن على والدته الأميرة، وفي كل يوم يزداد حقده على الملك الإله قاتل الأميرة، من الطبيعي أن تؤول ثروة الأم إلى ولدها، فآلت إلى موسى خزائن الذهب الخاصة بالأميرة من حلي وجواهر نادرة لا تقدر بثمن، احتفظ موسى بها كذكرى من والدته وأبقاها في صناديقها داخل جناحها الملكي، واستمر موسى بالعمل برغبة والدته بحضور التدريبات العسكرية والفروسية في القصر الملكي مع باقي أفراد العائلة الملكية.

وذات يوم جلس موسى حزينًا في إحدى حدائق القصر، حين شعر يدًا تمتد إلى كتفه فنظر ورأى الكاهن الذي رافق والدته طوال فترة حياتها، وكان اسمه (آمون تيف) بادئه بالحديث بقوله:

- مرحبا بأمير مصر، إنها فرصة جيدة أن أراك وحدك، وأريد الحديث إليك، كما تعلم أنا كاهن القصر، كنت المرافق شبه الدائم

لأمك الأميرة "انيخاس آمون"، وأرجو أن أكون صديقك أيضًا، وليس عيبًا أن يصادق كاهن كبير طفلاً في العاشرة من عمره، كانت والدتك عزيزة علي جدًا، وأوصتني أن اعتني بك بعد وفاتها، فهل تقبل أن تصادقني يا أمير مصر؟

قال موسى:

- نعم إني أعرف أنك صديق ومرافق والدتي، وأنا اعتز بصداقتك كما كانت هي أيضًا..

واستمر اللقاء بينهما منفردين حوالي أربع سنوات متواصلة، إلى أن بلغ موسى الرابعة عشرة من عمره قال الكاهن "آمون تيف":

- لقد بلغت من العمر ما يجعلني لا أعتقد أن حياتي سوف تطول كثيرًا بعد الآن، وإني أخشى أن يفاجئني القدر وأرحل عن هذا العالم، ولهذا أريد أن أبوح لك بسرّ أوصتني والدتك أن لا أبوح به قبل بلوغك سن الرجولة..

قال موسى:

- وما هو ذلك السر؟

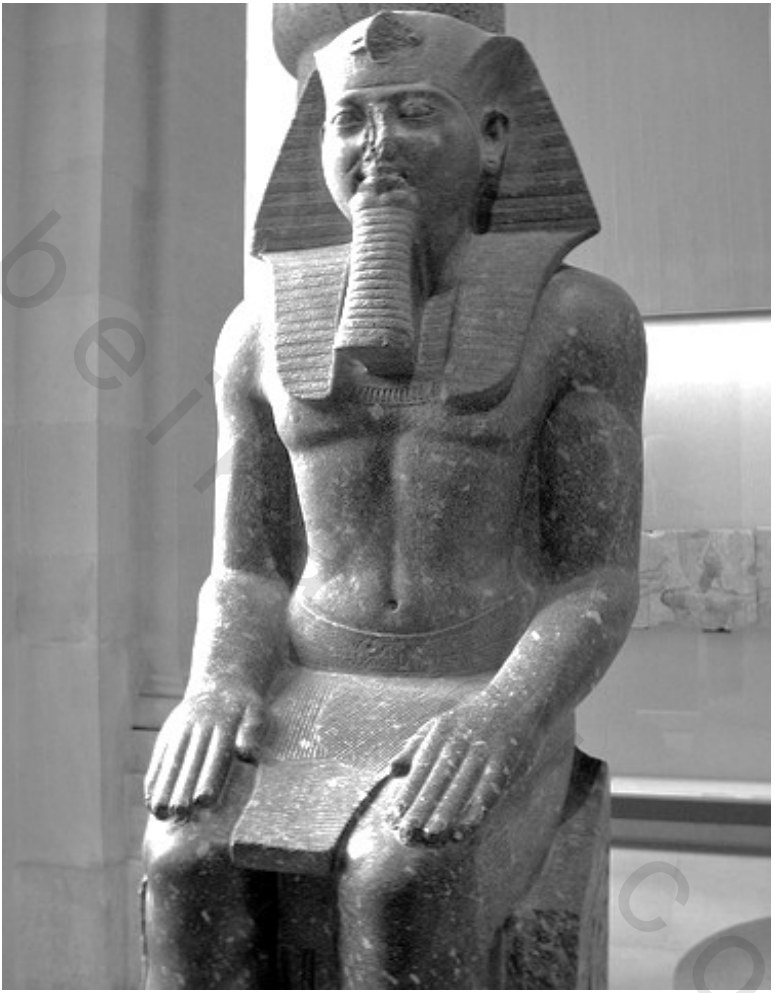

الملك رعمسيس الثاني – الأسرة الملكية التاسعة عشرة

قال الكاهن:

- كنتُ يومًا مع الأميرة أمك نتنزه بقارب ملكي في مياه دلتا النيل وأثناء تجوالنا في الزورق رأينا صندوقًا صغيرًا يطفو على وجه الماء، أمرتني الأميرة أن التقط الصندوق وكم كانت المفاجأة كبيرة حين فتحنا الصندوق ووجدناك طفلاً بداخله، وأدركنا أن القبائل البدوية التي تقيم على شواطئ دلتا النيل أصحاب بيوت الشعر السوداء هم الذين قدموك قربانًا للنيل، التقطناك وأخذتك الأميرة إلى القصر وطلبت مني عدم البوح بهذا الأمر لأنها أرادت أن تتخذ منك ولدًا وتجعل منك أميرًا على مصر..

قال موسى:

- إذن أنا لست ابن رعمسيس الثاني؟

قال الكاهن:

- لا يا ولدي أنت ابن تلك القبائل البدوية التي تسكن شواطئ الدلتا فهم عبيد رعمسيس الثاني.

قال موسى:

- وهل يعلم الملك الإله الحقيقة؟

قال:

- لا، رعمسيس يعلم أنك ابنه بالتبني ولا يعلم من أين جاءت الأميرة بك!

عندما بلغ موسى سن التاسعة عشرة من عمره استدعاه الملك للمثول بين يديه، وكان الملك يبغض موسى، حيث سمع إشاعات تقول بإن موسى يحمله مسؤولية قتل الأميرة أمه وأنه سوف ينتقم منه شخصيًا.. وصل موسى إلى القصر وقابل الملك، ولكن بدون خوف هذه المرّة، قال له الملك:

- أراك شابًا يافعًا قوي البنية، وإني أعتز بك أميرًا من أمراء مصر، لهذا أريد أن أوليك مهمة كي تخوض التجارب العملية وتصبح مؤهلاً لوراثة العرش من بعدي..

قال موسى:

- ما هي المهمة أيها الملك الإله؟

قال:

- إني أعد جيشًا لمهاجمة الكوشيين في الجنوب، وقد وضعتك ضابطًا في فرقة العربات في الجيش، وعليك أن تلتحق فورًا بالجيش وسيكون قائد العربات بانتظارك ليعطيك الدور المناسب لك.

انصاع موسى للأمر والتحق بفرقة العربات برغم أنه كان يعلم بأن رعمسيس إنما يريد إرساله في مهمة صعبة للتخلص منه، وقال له:

- هذه المهمة تستغرق ثلاث سنوات ولا أريد أن أراك قبل انقضاء هذه المدة، بعدها تواصل مسيرتك إلى الجنوب منفردًا حتى تصل إلى مدينة الذهب وتحضر كل ما فيها من ذهب لي.

ذهب موسى إلى قائد العربات واتفق معه على الدور المطلوب إسناده إليه، وعندها أدرك موسى أنه ليس لديه دراية كافية في قيادة العربات، لهذا طلب من قائد العربات أن يرشح له أحد العبيد من ذوي الخبرة في العربات ليشتريه ويكون قائد عربته الخاص، وجاءوا له بعبد يدعى (نون)، بدوي من البدو المقيمين على شواطئ دلتا النيل، دفع موسى ثمنه وأصبح "نون" عبده الخاص، وبرغم أن موسى أغدق على العبد نون وعامله معاملة إنسانية حسنة، إلا أن العبد حاول مغافلة موسى وطعنه بخنجر من الخلف، وكان موسى سريع الحركة، فاستدار بسرعة البرق، وأمسك بيد العبد، وخلص الخنجر من يده وضربه ضربة ألقت به إلى الأرض، فزحف العبد على بطنه إلى أقدام موسى ليقبلها ويطلب الغفران والصفح، فأوقفه موسى وقال:

- لماذا تريد قتلي؟ إني أعاملك معاملة طيبة، وأغدق عليك، فلماذا هذا الغدر؟ قل لي ما تريد ولن أمنعه عنك ولكن يبدو أنك عبد قذر لا يؤمن جانبك.

قال العبد نون:

- إني أبغض كل الدماء الملكية وأريد أن انتقم منهم على استعباد قبيلتي البدوية.

قال موسى:

- من أي قبيلة أنت؟

قال:

- من قبيلة اللاوي على شواطئ الدلتا..

قال موسى:

- إذن أنا وأنت أخوان في الدم..

قال العبد:

- كيف يكون ذلك وأنت ملكي؟ شرح له موسى بعض الشيء عن أصوله وجذوره.. قال العبد:

- إذن أنت الطفل الذي قدمته القبيلة قربانًا للنيل.. إذا صح ذلك يكون والدك (عمرام) وأختك مريم وأمك (جبينكا) وأخوك هارون.

قال موسى:

- اكتم السر لأنه لا أحد هنا يعلم بذلك سواي وأنت..

قال العبد:

- أنا وأنت أخوة في الدم ولن أتخلى عنك ما دمتُ حيًا فأنا خادمك المخلص المطيع من هذه اللحظة.

بدأت استعدادات جيش رعمسيس للتحرك جنوبًا لمهاجمة الكوشيين، وبدأت مسيرة فرق عربات الخيول، وكان موسى يقود إحدى تلك الفرق ومعه العبد "نون" يقود عربته، وسارت الجيوش بمحاذاة النيل جنوبًا من مكان تجمعها في الكرنك، وكانت المسيرة في غاية الصعوبة بسبب الجو الحار وطبيعة الأرض الوعرة، فكان الجيش يقطع حوالي خمسة أميال في اليوم فقط، وبعد ثلاثة شهور من

المسيرة وصل الجيش إلى مشارف ديار الكوشيين. خرج ملك الكوشيين بجيشه لملاقاتهم خارج المدينة والتقى بقائد الحملة وتحدث معه حول منع سفك الدماء.. وقال الملك:

- ماذا يريد ملك مصر منا؟ نحن قوم مسالمون ولا نريد الحرب إلا إذا فرضت علينا، فسوف نقاتل حتى أخر قطرة من دمائنا، إننا نطلب التفاهم ومنع حدوث مجزرة، نحن نطلب هذا وفي ذات الوقت نعلمكم بأن طلبنا لا يأتي من واقع ضعف بل لدينا القوة لردكم على أعقابكم، سوف نعطيكم ما تريدون مقابل المحبة والصداقة ومنع سفك الدماء..

رد قائد الجيش المصري بقوله:

- جئنا لنؤدبكم لأن بعضكم تطاول على الملك الإله رعمسيس الثاني.

قال ملك الكوشيين:

- إن الذين تطاولوا على ملككم هم نفر عاقبناهم وطردناهم من بيننا.

رد قائد الجيش:

- لن نهادنكم حتى تسلمونا أولئك الأفراد، وتأتوا لنا مذلولين خاضعين.

رد الملك بقوله:

- كيف نسلمكم أولئك الأفراد وقد نبذناهم وطردناهم من بيننا، ولا نعلم عنهم شيئًا الآن!

قال قائد الجيش المصري:

- إذن فيعمل السيف بيننا..

وانقض على ملك الكوشيين فقتله وبدأت الحرب بين المصريين والكوشيين، وقتل المصريون أعدادًا كبيرة من الكوشيين، انتهت الحرب بإخضاع الكوشيين لمصر، ونهب الجيش الغازي ذهب الكوشيين، وسبا نساءهم وساقوهم عبيدًا إلى مصر.

موسى الذي كان يعلم أن رعمسيس أرسله في هذه المهمة للتخلص منه، اتجه مع عبده "نون" إلى الجنوب للبحث عن مدينة الذهب برغم علمه أن لا وجود لتلك المدينة على الإطلاق، سار إلى الجنوب إلى أن وصل إلى مشارف منابع النيل الأزرق في الحبشة، ولم تعد الطرق تسمح باستعمال عربة الخيول، وكان أحد الخيول قد أصيب في الحرب مما جعل مسيرته صعبة، ترك موسى العربة والخيول واتجه جنوبًا مع نون سيرًا على الأقدام، سارا طويلاً رغم شدة حرارة الشمس الحارقة، وأثناء المسيرة دخلا إلى شعاب عديدة ووعرة، تعرض موسى فيها إلى لدغ أفعى، فاستل خنجره وقطع رأس الأفعى، إلا أن السم الذي نفثته فيه جعله غير متوازن، عندها أسرع إليه "نون" وشج بخنجره مكان عضة الأفعى وأخذ يمتص الدم من جسم موسى إلى أن تأكد أن خطر السم قد زال، ربط الجرح بقطعة قماش شبه بالية قدها من قميصه لوقف تدفق الدم، بعد ساعات بدأ موسى يعود من الغيبوبة وفتح عينيه ليرى العبد نون يجلس إلى جانبه والدموع تنهمر من عينيه حزنًا على فراق موسى،

فأشار له موسى بأنه يريد ماء، ناوله وعاء الماء ليشرب غير أن موسى لم يقوَ على رفع الوعاء إلى فمه، ساعده نون بذلك فشرب وبعدها تقيء موسى كل ما في معدته من سموم ونام نومًا عميقًا، وبعد خمسة أيام استعاد موسى صحته وواصلا المسيرة، فأقبلا على صبية يلعبون، ولما شاهدهما الصبية فروا من أمامهما، فتابعهم موسى ونون إلى أن وصلا إلى قرية يائسة، تجمع أهل القرية حولهما بخوف، إذ لم يكونوا قد شاهدوا سيفًا حديديًا ولا خنجرًا من قبل، وكان موسى ونون بالنسبة لأهل القرية غرباء قد يكونان من كوكب آخر، ورأيا عجوزًا كهلاً يجلس القرفصاء أمام بيته، قال لهما بلغة مصرية:

- من أنتما وماذا تريدان منا؟

قالا:

- أنت تتكلم لغتنا! من أين لك هذه المعرفة بلغتنا المصرية؟

قال:

- كنتُ عبدًا من عبيد الملك الإله رعمسيس، وتعلمت خلال فترة الاستعباد اللغة..

قالا:

- من أنت؟

قال:

- أنا الطبيب الساحر العجوز، وواصل السؤال لماذا جئتما إلى هنا؟

قال موسى:

- جئنا نبحث عن مدينة الذهب، ونعلم أن لا وجود لمدينة كهذه.

قال العجوز:

- لا يا بني، هذه هنا مدينة الذهب، فخذا ما يحلو لكما وارحلا عنا بسلام، نحن لا نقاتل أحدًا، نحن نحب الناس جميعًا وليس لنا أعداء.

قال موسى:

- لن نأخذ شيئًا منكم وسنعود إلى رمسيس بدون الذهب الذي يريد، لأننا نعلم الهدف الذي أرسلنا إلى هنا من أجله.

وبقي موسى ونون في ضيافة العجوز لمدة ثلاثين يومًا كانت من أجمل أيام حياتهما، بعدها عاد موسى ونون إلى مصر، وأخذتهما الرحلة أكثر من ثلاثة أشهر سيرًا على الأقدام. بعد عودتهما من الحبشة طلب موسى من "نون" أن يأخذه إلى البدو ساكني دلتا النيل وتعريفه على أهله هناك، ذهبا سويًا وكان والد موسى وأمه وشقيقه هارون قد توفوا ولم يبقَ من العائلة سوى أخته "مريم"، وكانت امرأة كبيرة في السن، ولها ابنة واحدة تبلغ من العمر حوالي ٢٠ عامًا، لما رأت مريم الأمير بلباسه الملكي خافت جدًا وتوسلت إليه أن لا يأخذ ابنتها الوحيدة، وعرضت عليه أن تذهب معه لتعمل في البغاء من أجل أن تجمع له المال مقابل أن يترك ابنتها ولا يأخذها كعادة الأمراء الآخرين. قال لها نون:

- إنه لا يريد أن يأخذ منكم شيئًا.. فهو أخ لكم.

فظنت أن نون يخدعها بقوله، سألت كيف يكون أخ لنا وهو أمير مصري؟ قال:

- أتذكرين يوم ألقيتم طفلاً من أطفالكم قربانًا للنيل؟

- قالت: نعم!

- قال: هو هذا الإنسان الذي جاء ليتعرف على أهله، فقد التقطته الأميرة "أنيخاس آمون" واتخذته ولدًا لها واعتنت به وربته أحسن تربية.

ولما تأكدت مريم أن موسى هو شقيقها ارتمت على أقدامه تقبلها، فرفعها وحضنها وكان لقاء حار لم يسبق أن عرفه موسى في حياته.

عاد موسى ونون إلى القصر، ثم ذهبا لزيارة صديق لموسى وهو مهندس القصر الذي كان يشرف على بناء القصر الكبير (الفرعون) على ضفاف النيل، ليروا كيف يستطيع البناءون رفع الحجارة الكبيرة التي يزن الواحد منها عدة أطنان ويضعوها في أماكنها في البناء، دون استعمال آلات رفع وكيف تثبت تلك الحجارة في أماكنها دون استعمال الملاط، وبينما كان هو ونون يقفان لمشاهدة عملية البناء كان مراقب العمال يجلد العبيد بالسوط، يحثهم على العمل والإسراع، وكان المراقب يضرب أحد العبيد ضربًا شديدًا، وكان العبد ضعيف البنية غير قادر على العمل، وضرب العبد بالسوط مما أدى إلى سقوطه على الأرض عند أقدام موسى، فما كان من موسى إلا أن أخذ السوط من المراقب وكسره وألقى به جانبًا ثم لكم

المراقب بقبضة يده فخر إلى الأرض ميتًا. حضر صديقه المهندس وقال: لقد قتلته يا موسى، قال موسى: لم أكن أقصد القتل، إنما أردت أن اخفف عن العبد المسكين ضرباته الموجعة.

علم الملك بأن موسى قتل عبدًا من عبيده، فكانت فرصة للملك أن يتخلص من موسى بذريعة الجريمة، استدعاه إلى قصره وقال له:

- كيف تجرؤ على قتل عبد من عبيدي؟

قال موسى:

- قتلته لأنه يسحق القتل.

- قال: ألا تعلم أن عقوبة هذه الجريمة هي الإعدام؟ ولكنك ابني ومن الممكن أن أعفو عنك إذا اعتذرت عن تلك الفعلة النكراء!

- قال موسى: لن اعتذر!

- قال الملك: إذن أنت تريد الإعدام!

- رد موسى بقوله: بل إنني أريد الحياة!

- قال: إنك تطلب الحياة لأنك ابني؟

- قال موسى: ألم يخبروك؟

- قال: ماذا يخبروني؟

- قال موسى: ألم يخبرك أحد؟

- قال: ماذا يخبروني؟

- قال موسى: ألم يخبروك بأني لست ابنك، أنا ابن القبائل البدوية التي تسكن حول الدلتا وأنا قطعًا لست ابنك!

- قال الملك: أنت تكذب.. فأنت ابني!

- قال موسى: لا.. أنا لست ابنك ولن أكون.

صعق الملك الإله من هذا الخبر وصاح في الحرس الملكي أن خذوا هذا الشيطان من أمامي، وأمر بسجنه في بيته ووضع حراسة مشددة على البيت الذي يقيم فيه موسى ونون.

كان البيت على النيل مباشرة، وواجهته الأمامية تطل على حدائق القصر الغناء، ولهذا كانت الحراسة من الجهة الأمامية فقط، ولم يفكر الحراس بأن موسى ونون من الممكن أن يهربا من الخلف عبر مياه النيل، وفعلاً تمكن موسى ونون من الفرار من خلف البيت، نزلا إلى مياه النيل وكان هناك قارب صغير استقلاه وأبحرا به في النهر شمالاً حتى وصلا إلى منطقة آمنة، ترجلا من القارب وسارا مشيًا على الأقدام في اتجاه الشرق إلى أن وصلا إلى سيناء ومن هناك عبرا إلى بلاد الحثيين في جنوب فلسطين، وعاشا هناك فترة من الزمن حيث توفي "نون" ودفن هناك.

بعد وفاة نون حزن موسى كثيرًا عليه وقرر أن يذهب بعيدًا عن المكان الذي دفن فيه صديق عمره نون، فاتجه شرقًا إلى أن وصل إلى بلاد المديانيين شرقي نهر الأردن، وهناك التقى بشعيب وتزوج إحدى ابنتيه التي دفع مهرها عشر سنوات عمل لدى شعيب.

بعد أن قضى مدة خدمته لشعيب ارتحل موسى مع زوجته المديانية إلى بلاد كنعان، وفي جانب الطور الأيمن المحاذي لمدينة نابلس الحالية كلَّمه الله العلي القدير وكلفه بالعودة إلى مصر، لتخليص المعذبين من ظلم رعمسيس الثاني الذي استكبر وادعى الألوهية، عاد موسى إلى مصر وأخذ يعمل على تحرير العبيد من قبضة فرعون، وتمكن بعد وقت طويل من اقتياد العبيد إلى برية سيناء.

المؤرخ الإغريقي القديم "مانيثو" كتب يقول: "بداية محتقرة قام بها الذي اقتاد المنبوذين إلى خارج مصر بأوامر من الآلهة المصرية، والمنبوذ هو الذي يعتبر غير نظيف من الناحية الجسمانية، ولكن مانيثو استعمل الكلمة بوصف قوم موسى الذين كانوا دينيًا غير نظيفين يغمرهم الدنس والرجس والقذارة الجسمانية. من هم الذي اقتادهم موسى إلى خارج مصر؟ ومن كان هؤلاء الناس؟ ماذا فعلوا لآلهة المصريين؟ لماذا كانوا منبوذين؟ ومن هم اللاويون؟ تلك القبيلة من بني إسرائيل التي لم يكن لها أرض في فلسطين، ولم يكن لهم فيها حق موطئ قدم سوى حق الكهانة؟ لماذا اللاويون دون غيرهم من القبائل الأخرى لهم أسماء مصرية مثل ميراري ومريم وأسير وبتئيل وبنحاس وهوفني وباشور، حتى هذا اليوم لا أجوبة على هذه التساؤلات، إنا نعرف فقط أنه منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد وفي عهد رعمسيس الثاني قاد رجل يدعى موسى أتباعه خارج مصر، وهذا حدث في أعقاب حصول المصريين على

السيف الحديدي وجنود العربات، فيما قاد موسى قومه خارج مصر كان على بعد مئات الأميال رعاة الصحراء البدو من بني إسرائيل يتجمعون في فلسطين.

كان رعمسيس الثاني مولعًا بإقامة المباني الفخمة والقصور المنيفة، وكان بدأ والده الملك "سيتي الأول" في بناء قصر على ضفاف النيل، إلا أن الوالد توفي دون أن يكمل بناء ذلك القصر العظيم، فأكمله رعمسيس الثاني وأضاف الكثير إلى مخطط بنائه، فكان قصرًا على جانب عظيم من الفخامة والأبهة، سماه "البيت الكبير"، وهذا الاسم يعني بالهيروغليفية المصرية "فرعون"، وحيث أن رعمسيس الثاني التصق بهذا القصر وأحبه جدًا؛ أطلق على نفسه اللقب "فرعون"، بمعنى "ملك البيت الكبير"، وهذا لقب وليس اسمًا للملك، ومنذ ذلك الوقت أخذ لقب فرعون يقترن بملوك مصر، وأصبحوا يعرفون بالفراعنة منذ عهد رمسيس الثاني فقط، أي منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد قبل زوال عهود الفراعنة بفترة ليست طويلة، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن إطلاق لقب "فرعون" على ملوك مصر الذين سبقوا رعمسيس الثاني هو الخطأ بعينه، حيث لم يكونوا معروفين بهذا اللقب قبل ذلك الوقت، كأن تقول التوراة مثلاً بإن إبراهيم الخليل عليه السلام ذهب إلى فرعون مصر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد أي قبل أن تعرف التسمية بحوالي ستمائة سنة، إنما يدل على أن مدونو التوراة كانوا لا يتوخون الدقة في تأريخ

كتاباتهم، ولكن قد نجد لهم العذر في ذلك إلى كون التاريخ التوراتي ينقصه التسلسل الزمني، مما يجعل اختلاط الأحداث وأوقاتها أمرًا عاديًا بل وكثير الحدوث.

كان حب رعمسيس الثاني كما أسلفنا للبناء والإنشاء عظيمًا، الأمر الذي دفعه لطلب أيادي عاملة من البلدان المجاورة، وقد جاءته أعداد كبيرة من العمال العبيد للعمل في مشاريعه العمرانية، وكان له وكلاء في أسواق النخاسة في كل بلدان الشرق الأدنى تقريبًا، كما أرسل حملات إلى إثيوبيا ليحضروا له عبيدًا من هناك، ووضع قوانين جائرة ليفرض على شعبه العبودية، واستعبد أيضًا عددًا من القبائل من سواحل شمال أفريقيا (بدو شمال أفريقيا)، فقد جاءوا إلى وادي النيل للحصول على الماء والعلف والغذاء من الأسواق المصرية، بسبب الجوع الذي كان ينخر أجسادهم وحاجتهم للطعام، وأيضًا بدو سيناء الذين سمح لهم في مناسبات عديدة رعي قطعان ماشيتهم في دلتا النيل. قبيلة اللاويين التي كانت قد تذوبت بالهكسوس، وبهزيمة الهكسوس في مصر السفلى أصبحوا عبيدًا للفراعنة، وهم دسيسة غريبة على الزمن كما يتبين من عالم الأثريات الغنية بالعلوم.

والتوراة تتحدث عن حشد من الناس اقتادهم موسى إلى خارج مصر وتُشير أن عددهم كان مئات الآلاف، غير أن المفكرين يكادوا يجمعون

على أن هذه الفكرة الغامضة نتجت عن التحريف في النصوص أو ما يعرف بالتوليد والاستيفاء لأرقام وتعداد السكان، فقد تم تقصى طريق الخروج، أي الطريق الذي سلكه هؤلاء الناس مع موسى، كما تم فحص حفر المياه وحسبت كميات المراعي وأصبح هناك ما هو شبه إجماع قائم على البحث العلمي بأن عددهم لم يكن يتجاوز الألف، وهناك احتمال أقرب إلى الصواب أن عددهم الفعلي كان يتراوح ما بين خمسمائة إلى ستمائة شخص فقط، والشيء الذي لا يصدق أن عدة المئات هذه أعطت ذلك الانطباع الضخم غير السوي عن حياتهم واختيارهم شعبًا خالصًا لله وغرسته في عقول بني البشر عبر آلاف السنين بأسلوب ماكر خبيث.

وبرغم أنهم تمكنوا من غرس هذا الانطباع والإحساس، فإنهم بما فيهم موسى قد صنعوا اليهودي والعقيدة الدينية اليهودية، من كانوا ومن أين جاءوا وما هي أصولهم وما هي علاقتهم الأكيدة ببني إسرائيل؟ إننا لا نعرف ومن المؤكد أن لا ولن نعرف.. كل ما نعرفه أنهم عند نقطة محددة انضم إليهم موسى وتحدى رعمسيس الثاني نيابة عنهم وأنه اقتادهم من مصر إلى برية سيناء ليعبدوا إلههم من ناحية، وليقوموا بأول حملة غزو لبلاد كنعان (فلسطين) بقيادة موسى، نعرف أيضًا أن موسى رجل لا ينسى، ورجل محبوب يخشاه البعض ويكرهه البعض الآخر، لكنه رجل ذو جلالة وكبرياء إنساني وإنه هو الذي بدء عملية القوننة وبدونه ما كان لليهود أن يكونوا

أمرًا ممكنًا، نعرف أيضًا أنه كان نبيًا من أنبياء الله الصالحين وكان قد تحدث لبني إسرائيل باسم الله العلي، ولكن ما هو الإله؟، اللاويون الذين اقتادهم موسى لم يكونوا موحدين حيث أن التوحيد كان لا زال بعيدًا عن معرفتهم.

بوجود الآلهة الطوطمية للقبائل الإسرائيلية الشمالية وخلال السنوات التي تلت، واصل بنو إسرائيل عبادة الآلهة الحيوانية حتى عصر الخروج مع موسى من مصر، وظلت صور الآلهة الحيوانية (الأيقونات) تظهر على بيارقهم، فمثلاً: التنين الذي ينفث من فمه النار وضع على بيارق اللاويين وقبيلة إساخار التي عبدت الشمس والقمر طرزتهما على بيارقها السوداء، وهكذا كانت كل قبيلة تتبع شعار الآلهة التي عبدها أجدادهم، وكانت لهم الحرية في وضعها على بيارق القبيلة، فقبيلة يهودا كان شعارها الأسد برأس امرأة سموه "أبو الهول"، وقد ظل هذا الشعار قابعًا لسنوات طويلة في هيكل سليمان في بيت المقدس، أما قبائل يوسف النبي فقد عبدوا العجل واتخذوه شعارًا كما فعل أقرباؤهم في جزيرة "كريت" والأقربون إليهم من الفينيقيين على طول السواحل الفلسطينية الشمالية ولبنان.

أهم آلهة لدى القبائل الإسرائيلية كانت آلهة قبيلة "دان" وهي: "النحوشتان" أي الأفعى أو الحنش، والتي اشتق منها اسم الشيطان واعتقدت قبيلة دان أن "النحوشتان" أعطت الإنسان المعرفة في جنة

عدن، كما اعتقد قدماء الإغريق أن بروميثيوس الإله أعطى الإنسان النار ووضع كراهية الإله زيوس إله الرعد وكان هناك لدى القبائل الإسرائيلية إله رعد آخر يطلقون عليه اسم "يهوه إله جبل حوريب" في برية سيناء، وهو الإله القوي الفخور الغيور، إله الأماكن المرتفعة، وكان يهوه عدوًا للنحوشتان الأفعى، وقد وضع النحوشتان أيضًا في هيكل سليمان على قدم المساواة مع إله قبيلة يهودا "أبو الهول"، وبقي هناك بشكله البرونزي إلى عهد الملك "حزقيال" الذي هدمه وأذاب نحاسه لاستعماله في أغراض أخرى مفيدة، وإننا نستخلص من هذا أن موسى لم يستطع أن يغير من نفسية بني إسرائيل برغم خروجهم معه إلى برية سيناء وتلقيه الرسالة السماوية على جبل حوريب، وهنا نراهم يسمون الله "يهوه" إله جبل حوريب كما احتفظوا في عهد موسى عليه السلام بآلهتهم وتماثيلها في الهيكل الذي بناه سليمان بعد وفاة موسى بأربعمائة عام تقريبًا، وهذا يؤكد أن موسى عجز عن إلغاء الآلهة الطوطمية ولم يقنعهم بتوحيد الإله العلي.

يضاف إلى آلهتهم "الإله الذئب"، مع تذكير القارئ بأن هذه الآلهة الحيوانية عرفت بالآلهة "الطوطمية"، الإله الذئب كان للقبائل البنيامينية، وبالرجوع إلى التوراة نرى كم كان أولئك البنياميون مبغوضين لدرجة الإبادة من قبائل بني إسرائيل الأخرى، ولكي نُكمل قصة قبائل "عاشر" الذين تركوا عمل الرعاة وتحولوا إلى الزراعة

والاعتماد على حقول الجليل الجنوبي الخصبة، فأقاموا المعابد لآلهتهم الأم التي أطلقوا عليها اسم "عشتورت" وعبدوها عن طريق "الجماع الجنسي" مع راهبات المعبد، الأمر الذي أثار الإغواء والإغراء فانتشر ذلك في كل أنحاء بلاد كنعان (فلسطين) وهذا أثار غضب حاخامات الإله "يهوه"، فصاحوا في الناس بأن لا يهرولوا ويندفعوا وراء آلهة غريبة.

في غمرة هذا الارتباك والفوضى حول طبيعة الآلهة وأسمائها، قال موسى عليه السلام للرب أثناء مناجاته: "ماذا لو أنهم لم يصدقوني ولا يسمعوا لقولي ويكذبون تجليك لي؟ فيقول الرب يهوه إله الرعد وعدو "النحوشتان" مخاطبًا موسى: "الق عصاك التي بيدك إلى الأرض"، فألقى موسى عصاه فإذا بها تنقلب إلى نحوشتان، ولكن الأفعى كآلهة تعبد ترتبط دائمًا بالوجدان اليهودي على أنها ذات صلة بالزراعة والخصب والنماء، وبالرغم من الإشارات المتعددة إلى أن عصا موسى السحرية لم يكن من المحتمل أن تكون تلك هي "النحوشتان" الحقيقية إله موسى أو إله اللاويين.

اللاويون مهما كانوا، قد سكنوا مصر وهم ليسوا من الفلاحين بل من الرعاة الذين أقاموا في أراضي المراعي والمياه والبحيرات والمستنقعات والأنهر، ولو كانوا من الفلاحين لانتهت حياتهم خلال أيام معدودة في الصحراء بعد خروجهم مع موسى إلى برية سيناء،

لهذا يمكن الاستنتاج أن اللاويين كانوا رعاة أغنام وليسوا من المصريين، حيث لم يكن في مصر في تلك العهود رعاة منهم على الإطلاق، إذ كان اعتمادهم على الزراعة والصناعة وكان لهم علاقة بشكل أو بآخر مع بني إسرائيل وقد انخرطوا في وقت لاحق بقبائل سيمون ويهودا وكين، وكان ذلك الانخراط يوفر لهم سلامًا أكثر في حياتهم في مصر، أما مسألة تسميتهم بأسماء مصرية؛ فإن من عادة بني إسرائيل أن ينتحلوا أسماء تتفق مع نكهة أسماء الشعوب التي يقيمون بينها، لقد قبلوا موسى باسمه المصري لأنه إما كان منهم، أو إنه من العائلة الملكية في مصر حسب اعتقاد الكثير من الأركيولوجيين والمؤرخين، لقبوا أنفسهم بقبيلة من الرهبان حيث أن آلهتهم هزمت الآلهة الأخرى (ليس الآلهة الأجانب) بل آلهة بني إسرائيل.

موسى عليه السلام غاضبا يحطم الألواح بعد عودته من الجبل وقيام قومه بعبادة عجل الذهب

كان يهوه إلههم الذي قال لزعيمهم موسى: "أنا يهوه.. إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر، بيت عبوديتكم، لا تعبدوا آلهة أخرى غيري"، لذلك كان إلههم هو "يهوه" إله الرعد الغيور والعادل، وقد

ورد اسمه أكثر من سبع آلاف مرة في تاريخ وفلسفة اليهود التي لم تكن دونت في كتاب، سموه في وقت لاحق "التوراة"، فمن المهم جدًا أن نحاول فهم السؤال المتعلق بإله اليهود وكيف بدأت عملية التطور الطويلة والارتقاء، السؤال دفع الرباني اليهودي "هلليل" للعمل على استرجاع ديانة اليهود التي جاء بها موسى اللاوي، وحاول زرع المحبة في قلوب بني إسرائيل بقوله: "أحبوا جيرانكم كما تحبون أنفسكم"، وفيما يتعلق بالتوحيد فإن موسى ذاته لم يكن من الموحدين، وكذلك لم يكن واحدًا من الذين اقتادهم إلى برية سيناء، غير أن هناك ترجمة "ميتافيزيقية"، أي ترجمة ما وراء الطبيعة للتاريخ تجعلهم يبدون وكأنهم موحدون، إضافة إلى ذلك لم يكن من القبائل اليهودية الأخرى ولا من أقربائهم موحدين أو أي شيء يشبه التوحيد، اللاويون يعدون إلههم هو الإله المتفوق الأول على مجموعة الآلهة باعتباره إله الصحراء الذي ينبغي عبادته في قلب الصحراء، فكان عليهم أن يخرجوا إلى مسافات بعيدة في الصحراء لعبادة الإله "يهوه"، والسؤال هنا.. لماذا لا يُعبد هذا الإله إلا في الصحراء فقط؟ يقول اللاويون إنهم لا يستطيعون رؤيته إلا في الصحراء وإن لم يروه فمن وماذا يرون إذن؟ تذكر التوراة في سفر الخروج: "انطلقوا من سخوت واضربوا خيامكم في إيتام في طرف البرية، الإله يهوه يتقدمكم في عمود من الغيوم نهارًا ليدلكم على الطريق، وفي عمود من النار ليلا"، دخان نهارًا ونار ليلاً! هل هناك وصف أكثر دقة من "البركان"؟ إله البركان يعيش في أعلى

قمم جبل سيناء أو جبل حوريب إذ يحتمل أن يكون الاسمان لجبل واحد لم يعد موقعه بالتحديد معروفًا سوى أنه في برية سيناء، كيف كان شكل ذلك الإله يهوه؟ هل كان خيالاً أم قطعة من نار ودخان؟ أم كان إلهًا ساخنًا مبتلعًا؟ يقول سفر الخروج في توراة النبيين المكتوبة والمقروءة "أي إنسان يلمس الجبل قتلاً يقتل" جبل مميت أكثر من الإله، ويضيف سفر الخروج فيقول "الآن ارتفع الدخان مثل دخان متصاعد من التنور ثم ارتعش الجبل بشدة"، والغريب أن بركان جبل حوريب مرّ بفترة خمود، وقد فهم بدو الصحراء البرابرة من بني إسرائيل أن الإله خذلهم بالتوقف عن النزول في عمود من نار على الجبل، فاعتقدوا أنه مات أو رحل.

كان هؤلاء البرابرة (والبرابرة هنا تعني الذين يعيشون في البراري والصحاري) الرعاة يخضعون للاستعباد في مصر قبل حوالي ١٥٠٠ سنة من العصر المسيحي، خصوصًا في عهد الملك رعمسيس الثاني، يعملون في الإنشاءات والمستودعات التي كان الملك مغرمًا بإقامتها حول أراضي المراعي الخضراء على ضفاف النيل، لقد استعبدهم رعمسيس بقسوة شديدة كما استعبد جميع العاملين الذين استقدمهم من البلدان المجاورة للعمل في إنشاءاته، وبما أنهم من البدو كان العمل المفروض عليهم بالقوة في مجالات غير مجالات حياتهم التي اعتادوا عليها مبغوضًا لديهم، لهذا حدث حدثان مهمان في ذلك الوقت، الأول: أن عاد البركان فنشط من جديد، والثاني كما أسلفت أنفًا ظهور زعيم اسمه "موسى" اقتاد حوالي ٥٠٠ أو ٦٠٠

شخص على أبعد تقدير خارج مصر إلى برية سيناء، ولم ينجز موسى مهمته بالعنف ولكن بقوة شخصيته. وبهذه القوة استطاع أن يعيدهم إلى عبادة الإله "يهوه"، ثم ما لبث موسى أن وضع قانونًا جديدًا لحياتهم عرف فيما بعد بـ "الوصايا العشرة"، إلا أنهم عندما أعادوا تدوين التوراة في العراق بعد ٧٠٠ عام على وفاة موسى جاءوا بشرائع حمورابي واتخذوها وصايا، ونسبوها إلى موسى، وموسى لا علم له بهذه الوصايا مطلقًا.

علماء التاريخ والآثار يعتقدون أنه كان هناك أربع قبائل يهودية باستثناء اللاويين، يشكلون أساس ما عرف لاحقًا "ببني إسرائيل"، الذين كانوا يرعون ماشيتهم في المنتصف الشرقي لبرية سيناء وفي النقب جنوب بلاد الكنعانيين، الجزء الذي يعتبر جغرافيًا امتدادًا لسيناء، هذه القبائل هي: يهودا وسيمون وكالب والكينات، وكان مركز قوة هذه القبائل الأربع يتمثل في قبيلة "يهودا"، التي لا زالت تلوك المرارة في الصحراء الجافة، وكانت القبائل الشمالية قد قطعت شوطًا في زحفها داخل بلاد كنعان فاحتلت الأرض وبنت أو احتلت المدن وذاقت حلاوة اللبن والعسل هناك، ومن ناحية أخرى كانت قبيلة "يهودا" مختلفة في عباداتها، حيث كان أبناؤها يعبدون الأسود برؤوس نساء مثل "أبو الهول ذو الأجنحة"، إلا أن هذه الآلهة كانت صغيرة، وقوتها صغيرة أيضًا إذا ما قورنت بإله الجبل "يهوه" إله النار والرعد أو "الإله البركان".

هذه هي القبائل التي جاء معها موسى وعشيرته "اللاويين"، ويعتقد أن موسى هو الذي أسس الإتحاد الجنوبي، الذي أقيم على أساس القوة اليهودية، على أي حال كان موسى نبيًا وقد اتبع اليهود تصورات موسى كما اتبع موسى تصوراتهم. قبيلة يهودا هي التي دعمت اللاويين (قوم موسى) وهي التي قبلتهم كقبيلة مقدسة ليهوه الإله ووضعت تحت تصرفهم وبين أياديهم السيوف والخيول والعربات منذ بدايتها التاريخية، ولكن ظل السؤال الكبير حول لمن الحق الأول في عبادة "يهوه" وفي صيانة الطقوس الدينية المتعلقة بذلك الإله، وكذلك التحدث بصوته أو باسمه بعد احتلال أجزاء من بلاد كنعان من قبل بدو الصحراء الذين عرفوا آنذاك ببني إسرائيل.

قسمت المناطق التي احتلوها فيما بين قبائلهم ولم يعط اللاويون أي جزء من الأرض بل سمح لهم بحق الكهانة وحق جمع الضرائب من ٤٨ قرية فقط، وهنا نعود فنذكر القارئ برقم ١٢ السحري الذي يستعمله بنو إسرائيل، فنرى الرقم ٤٨ هو مضاعفات رقم ١٢ تمامًا كالرقم ٧ وسحريته؛ فالسماوات سبعة والأراضي سبعة وأيام الأسبوع سبعة.. الخ. على أي حال من المشكوك فيه أن يكون اللاويون قد حصلوا على ذلك الحق المتعلق بيهوه، وهذا يعمق الغموض في أصولهم وتجانسهم، فلو كان اللاويون من قبائل إسرائيل الاعتيادية لما ارتضوا أن يعيشوا بين القبائل اليهودية الأخرى بدون حصولهم على الأرض، إلا أن ما يبرر قبولهم بالكهانة فقط دون الأرض قد يرجع سببه إلى قلة عدد اللاويين الذي خرجوا من مصر مع موسى،

إذ أن خمسمائة أو ستمائة شخص لا يمكن أن يكون بينهم أكثر من مائة رجل فقط يستطيعون حمل السلاح، بمعنى أنهم كانوا ضعفاء من حيث العدد، وهذا ما يؤكد بحث العلماء حول أعداد الخروج، ويعارض ادعاء التوراة والتلمود بأن عدد اللاويين الذين خرجوا من مصر مع موسى كان ستمائة ألف شخص.

مع مرور الزمن وفي عهد الملك داود انتشر اللاويون فجأة في كل أرجاء فلسطين، وتوقفوا عن عبادة الإله "يهوه"، فقد نبذوا عبادته كما نبذته قبائل بني إسرائيل الأخرى، لأنهم وجدوا آلهة أكثر جاذبية من جاذبية الإله البركان "يهوه"، بعضهم عبد الآلهة الكنعانية – الإله داجون والإله بعل والإله "غول" وغيرهم من الآلهة الكنعانية الأخرى- وذلك بعد موسى، الأمر الذي يؤكد أن موسى اللاوي لم يتمكن من زرع قوانينه وعقائده بصورة جيدة في عقلية الأقوام اليهودية البدوية.

§ الفصل الثاني

الفراعنــة

كما أسلفت في مقدمة هذا الكتاب، سوف أعود هنا للحديث عن أصول الفراعنة وجذورهم العربية ولو بصورة مختصرة، لأن وجود الفراعنة طويل جدًا وعميق في تربة التاريخ القديم، كما أننا لسنا بصدد البحث في تاريخ الفراعنة إلا بالقدر الذي يتصل بتاريخ بني إسرائيل، سواء كان ذلك الاتصال في وادي النيل أو في بلاد كنعان أو في برية سيناء، وهذا سوف يأخذنا للحديث أيضًا عن الهكسوس الذين غزو مصر واحتلوا مصر السفلى وحكموها ١٥٠ عامًا، فجميع هذه الأمور مترابطة وأود أن أشير إليها بنوع من التفصيل.

قبل خمس عشرة ألف سنة من يومنا هذا حدث تصحر في جنوب جزيرة العرب، وبالتحديد في اليمن وجيزان وعسير، فيما يعرف اليوم بالمملكة العربية السعودية، وكذلك في حضرموت التابعة لليمن آنذاك، وقد حدث ذلك التصحر لأسباب جيولوجية، من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل مكة المكرمة مركز الكرة الأرضية، وما كان اعتباطًا أن يؤمر إبراهيم الخليل عليه السلام بإقامة قواعد البيت في وادي مكة أي في مركز الكرة الأرضية، ولم يكن إبراهيم

ولا أحد من بعده يعلم هذه الحقيقة إلا أن اكتشفها العلماء والباحثون حديثًا، فالمركز، أي مركز، يقوم على ما يسمى (المحور) والمحور له قطب مغناطيسي، كما توصل إليه العلماء مؤخرًا، والقطب المغناطيسي للأرض يلعب دورًا كبيرًا في خصبها ومياهها ومراعيها وحياة شعوبها، وقبل خمس عشرة ألف سنة كما تشير الأبحاث الجيولوجية والعلمية بدأ القطب المغناطيسي للكرة الأرضية بالتحرك غربًا من المركز الرئيسي في مكة المكرمة، وبما أن تحركه بطيء جدًا، لينتقل من درجة إلى درجة يحتاج إلى سنين طويلة، سار متحركًا باتجاه الغرب، وبعد أكثر من مائتي عام، قطع حوالي ٨٠ درجة غربًا، ووصل إلى خليج هودسن فيما يعرف اليوم بالقارة الأمريكية، وبسبب هذا الانتقال بدأت منطقة جنوب الجزيرة العربية تتصحر وتجف مستنقعاتها وغدران المياه فيها إلى أن جفت تمامًا، وبدأت القارة الأمريكية التي كانت قاحلة قبل ذلك بالنمو والازدهار واختلفت فيها المناخات، وأصبحت خضراء بفعل وصول القطب المغناطيسي إليها، وحيث أن أهل الجزيرة العربية كانوا في ذلك يعتمدون في معيشتهم على قطعان الماشية ويهمهم توفر المراعي لماشيتهم، ومع الجفاف الذي أصاب مناطقهم، اضطروا للرحيل باتجاه شمال الجزيرة العربية سعيًا وراء الماء والمرعى، ووجدوا ضالتهم في الجزء الأوسط من شبه جزيرة العرب بما يعرف اليوم بالمملكة الأردنية الهاشمية، فأقاموا هناك حيث كانت المنطقة قريبة

من ما يسمى بحر لوط أو البحر الميت اليوم، وكانت مياه ذلك البحر حلوة صالحة للشرب وكانت تحيط به الأراضي الخضراء الخصبة، ومع مرور الزمن تكاثرت الهجرات المتعاقبة إلى تلك المناطق في أواسط شبه الجزيرة العربية، الأمر الذي كان لا بد من البحث عن مصادر أخرى لمعيشتهم، فاتجه قسم منهم إلى الشرق، إلى أن وصلوا إلى بلاد ما بين النهرين (العراق)، حيث نهري دجلة والفرات، تلك البلاد التي تصفها التوراة اليهودية بأنها جنة عدن، وفي لغة تلك القبائل (العربية القديمة) كلمة "آرام ورام" بمعنى عالي أو المناطق العالية، وباعتبار أن تلك القبائل التي وصلت إلى بلاد ما بين النهرين جاءت من مناطق مرتفعة وهي الأردن فقد أطلق عليهم اسم (الآراميين) أي سكان المرتفعات.

كما أن قبائل أخرى ارتحلت غربًا إلى أن استقرت في وادي النيل بسبب الخصب والمرعى والبلاد الجميلة وأقاموا هناك أكبر حضارة عرفها التاريخ القديم وأطلق عليهم (الفراعنة)، ولكنهم في حقيقتهم يرجعون إلى أصول في جنوب جزيرة العرب، وأنهم من أصلاب القبائل العربية التي تعيش في شبة جزيرة العرب.

وهنا يجب توضيح علاقة بني إسرائيل بفراعنة وادي النيل، وهي أن بلاد وادي النيل كانت في ذلك الوقت تُدار من قبل دولتين فرعونيتين، الأولى عرفت "بمصر العليا" وهي في المناطق الجنوبية

من وادي النيل، أي في منطقة ما يعرف اليوم بمنطقة أسيوط وسوهاج ومنطقة النوبة، والحكومة الثانية عرفت بمصر السفلى وهي الوجه البحري المصري على الساحل الممتد غربًا، إلى ما يسمى اليوم الإسكندرية والصحراء الغربية، وكانت الدولتان في حالة صراع دائم فيما بينهما وحروب متواصلة لدرجة أنهما ضعفتا وأصبحتا عرضة للغزو من قبل القوى الأخرى.

في تلك الأثناء استهوى قبائل الهكسوس شمال شبه الجزيرة العربية في سوريا الحالية، بسبب الخصب والمراعي الخضراء في تلك المنطقة، استهوى بالقدوم من أواسط آسيا الصغرى إلى مناطق شمال شبه الجزيرة العربية، (وكلمة هكسوس هي كلمة إغريقية تعني ملوك الرعاة). أقام الهكسوس بادئ ذي بدء في مدينة في شمال سوريا تعرف بمدينة قطنة القريبة من حلب الحالية، وأقاموا لهم مملكة هناك، ولما تكاثروا نادوا في البلاد السورية يطلبون رعاة لمواشيهم، وتقدم للعمل معهم في رعي الماشية رجل وعائلته من شرقي سوريا عرف باسم "اللاوي"، وعاش هو وعائلته معهم وهم من بقايا قوم نوح، وانتقل الهكسوس جنوبًا، وانتقل معهم اللاويون أيضًا، إلى أن وصلوا إلى ما يعرف اليوم بمدينة نابلس في بلاد الكنعانيين، فأقاموا هناك ثم ارتحلوا جنوبًا إلى أن وصلوا إلى برية سيناء حيث كانت المراعي الخصبة، وهناك في برية سيناء أقاموا لهم دولة عرفت بدولة الهكسوس.

في تلك الأثناء كانت المصريتان العليا والسفلى في حالة حرب فيما بينهما، الأمر الذي أضعفها وأعطى فرصة للهكسوس بالانقضاض على مصر السفلى من سيناء، فاحتلوها وحكموها حوالي ١٥٠ عامًا، وطبيعي أن ينصهر اللاويون مع الهكسوس خلال هذه المدة الطويلة، وبسبب التزاوج والتصاهر الذي تم بينهم أصبح اللاويون جزءًا من الهكسوس.

بعد ١٥٠ عامًا من إقامة دولة الهكسوس في مصر السفلى استعادت مصر العليا قوتها وغزت الهكسوس في مصر السفلى، واستمرت الحرب بين الطرفين زهاء ٥٠ عامًا، انتهت بانتصار الفراعنة على الهكسوس، فأخذوهم سبايا وعبيدًا لهم، وكان اللاويون من ضمنهم باعتبارهم جزءًا لا يتجزء من الهكسوس، وبسبيهم إلى مصر العليا أصدر الفرعون المنتصر مرسومًا بقتل مواليد الهكسوس الذكور الجدد، لكي لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، وكان هذا القرار ينطبق على جميع الهكسوس ومنهم اللاويين، غير أن اللاويين استغلوا ذلك لاحقًا وأشاعوا بأنهم هم المقصودون بقرار الفرعون وذلك من باب طبيعتهم في استدرار الشفقة والعطف عليهم من الشعوب الأخرى، كما حدث في قضية افتعلوها أثناء الحرب العالمية الثانية وأطلقوا عليها كذبًا اسم (محرقة النازيين) أو الهولوكوست.

لذلك عندما تقول الدكتورة "هلين صادر" أستاذة علم الآثار في الجامعة الأمريكية ببيروت؛ إن الاتجاه السائد في علم الآثار يأخذ بآراء يتناقض بعضها مع ما ورد في نصوص توراتية عن اجتياح الإسرائيليين لفلسطين، وكذلك وجودهم التاريخي في مصر، وترى الدكتورة صادر أن الحفريات الأثارية في السنوات الثلاثين المنصرمة أدت إلى التوصل إلى معلومات جديدة سمحت بإعادة النظر في ما يسمى مجيء الإسرائيليين إلى بلاد كنعان، وتسمح هذه المعلومات كذلك بإعادة النظر في موضوع القول بوجود الإسرائيليين في مصر كشعب واحد، وإنهم تركوها بقيادة موسى ودخلوا فلسطين بقيادة يشوع بن نون كجماعة موحدة، وهم الذين يوصفون بأنهم كانوا (١٢) قبيلة أو سبطًا، وإنهم احتلوا فلسطين في حرب واحدة، فإنها تكون صادقة، حيث أنهم عاشوا في مصر تحت مسمى هكسوس ولم يعيشوا باسم بني إسرائيل، لذلك لا توجد كتابات تشير إليهم في الأثار المصرية المكتشفة حديثًا.

§ الفصل الثالث

الأرض - أرض كنعان

أرض كنعان قديمة قدم الزمن، وهي أرض ذاكرة الإنسان وأرض تاريخ الإنسان المدون، وهي المكان الذي نشأت وتكونت فيه الحروف الأبجدية، وعرف فيه البرونز والحديد، وفي أرض كنعان قامت أقدم مدن العالم تحيط بها الأسوار المنيعة والحصينة، فكانت مهد حضارة الإنسان ومنبع ثقافة شعوب منطقة الشرق الأدنى.

يدَّعي بنو إسرائيل أن هذه الأرض هي "أرض إسرائيل"، قبل أن يغزوها بدو الصحراء البرابرة من الإسرائيليين، ولكن من كان هؤلاء الغزاة؟ ومن لم يكونوا بني إسرائيل؟ الإجابة على هذا السؤال في غاية الصعوبة، كانت الأرض تُعرف بأرض كنعان، فيما عدا الساحل الجنوبي منها الممتد من جنوب مدينة يافا الساحلية على مسافة أربعين ميلاً جنوبًا في السهل الساحلي الغني، حيث جاءه غزاة من جزيرة كريت اليونانية، وثبَّتوا جذورهم في تلك المنطقة وبنوا هناك خمس مدن بأسوارها، فكانت تلك المنطقة الجنوبية من بلاد كنعان تعرف ببلاد الفلستينوس، نسبة لاسم القبائل الكريتية التي غزت المنطقة واحتلتها، وكان احتلال الكريتيين لجنوب بلاد كنعان

قد تزامن مع غزو بني إسرائيل للبلاد من الجنوب والشرق، وكانت تلك المدن التي أقامها الكريتيون هي: غزة وعسقلان واسدود وعكرون وجاث وكان اسم الغزاة الذين جاءوا من البحار الفلستينوس ثم ما لبث وأن تحول بعد مرور مائة وأربعين عامًا على انخارطهم بالكنعانيين، وبعد أن أصبحوا يشكلون شعبًا واحدًا مع الكنعانيين سكان البلاد الأصليين، تحول اسم البلاد من بلاد كنعان إلى فلسطين نسبة للكريتيين الذين تذوبوا في البيئة الكنعانية، كان أهل البلاد من الكنعانيين قد سمحوا بالإقامة بينهم لكثيرين من المصريين والحثيين والعموريين، وكان الكنعانيون يعبدون آنذاك آلهة من الأساطير أيضًا، واعتبروا أن إبراهيم الخليل جدهم، وأشاروا بأنه دفن هو وذريته بينهم، عبدوا الأفعى والثور والشمس والقمر كما عبدت القبائل اليهودية، إلا أن الكنعانيين رفضوا عبادة الإله "يهوه"، وما يثير الدهشة أنهم كانوا ينقسمون إلى (١٢) قبيلة أو "دويلات" (مدن صغيرة) حيث كانت مدنهم محاطة بأسوار منيعة، فإن كانوا قد قبلوا الفلستينوس بينهم، وأن الفلستينوس تكنعنوا خلال مائة وأربعين عامًا وأصبحوا جزءًا من الكنعانيين، فإن هذا يعيد إلى الأذهان رقم (١٢) السحري، أمامنا طريق واحد لفهم التناقض بين بني إسرائيل داخل فلسطين وبني إسرائيل خارجها، وهو أن يتذكر المرء رقم (١٢) الذي لازم قبائل بني إسرائيل، حيث أن بني إسرائيل تاريخيًا كانوا تجمعات كبيرة نسبيًا إذا ما قورنوا بالإغريق،

وأن اليهود كانوا بالأساس قبيلة كبيرة ومنفردة في التجمع اليهودي وهي قبيلة "يهودا"، وإن غزوهم لفلسطين وتاريخهم اللاحق داخل فلسطين كان فريدًا في نوعه منفصلاً عن جميع قبائل بني إسرائيل الأخرى، حيث أنه عبر القرون في فلسطين قد تذوب آلاف وآلاف منهم في بيئة البلاد.

إن جاز الحديث طوبوغرافيًا ومناخيًا فإن أرض كنعان كانت قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة عام تختلف تمامًا عما هي عليه اليوم، برغم جميع الإصلاحات التي تقوم بها الدولة العبرية الجديدة، فعلى تلالها وأوديتها ملايين من أشجار الزيتون وغابات الصنوبر والأرز، خلال الثلاثة آلآلاف عام الماضية، كان لكل حرب وكل غزو وكل معركة نصيبها في القضاء على الأشجار المثمرة والأشجار الحرجية، ففي الحروب الرومانية مع اليهود قطعت أشجار الزيتون بمئات الآلاف وعريت الهضاب والتلال، وحيث لم يكن يتوفر نظام حفظ التربة فقد كانت نتيجة لعملية الانجراف والتصحر أن خفت المياه وتغير المناخ.

كان الريح في تلك الأرض نسيمًا عليلاً يحمل معه رائحة أشجار الصنوبر والسرو والأرز، المستنقعات كانت تتواجد في كل مكان، ينابيع المياه العذبة تنبع من الأرض في أحواض وبرك تملأها أسماك المياه العذبة، البيارات وحقول الزيتون والتين واللوز والرمان كانت كلها كثيرة لا تحصى، وفي كل منحنى كروم العنب وكانت تلك

الأرض تعرف بأرض النبيذ (الخمر)، السهول الساحلية كانت تغطيها مزروعات الحبوب، وفي المرتفعات الجبلية المواشي والأغنام في مراعيها الخضراء، وحتى في مناطقها الجافة إلى الجنوب من مدينة القدس كانت خصوبة لا تتوفر اليوم، من صيدا في الشمال إلى بئر السبع في الجنوب كانت منطقة تُعد من أغنى بقاع العالم، وأكثر منطقة تنتج جميع أنواع الفواكه في العالم القديم.

هكذا كانت بلاد كنعان، ولكن علينا أن نتسائل فيما إذا كان هناك بنو إسرائيل داخل أرض كنعان وفي الصحراء المجاورة؟ وهل فرقت التوراة اليهودية بين الغزاة وبين من وقع عليهم الغزو؟ ولماذا تحيزت التوراة لصالح الغزاة ضد من وقع عليهم الغزو؟ الجواب واضح جدًا، لقد كان الغزاة هم الذين كتبوا تلك التوراة، وقد كتبوها من وجهة نظر الغزاة الفاتحين، وبالتالي فإن التوراة هي تاريخ موسى والإله يهوه من وجهة نظر منفردة لقبيلة قوية كسبت الصعود على أكتاف قبائل بني إسرائيل الأخرى، وهي قبيلة "يهودا"، والتي عرف أفرادها أيضًا في وقت لاحق باليهود.

ولكي نتعرف على ذلك جيدًا علينا أن نستعرض غزوات ثلاث لبلاد كنعان قام بها الرعاة البدو من بني إسرائيل، الذين كانوا يتكلمون الآرامية، والذين اشتركوا في أساطير عامة، وتاريخ ديني عام، وادعوا أنهم ينتمون إلى نفس الأجداد: إبراهيم واسحق ويعقوب ويوسف والأسباط.

أول غزو لفلسطين بدأ قبل أربع آلاف سنة، وقد وردت أخبار ذلك الغزو في الإصحاحات الثمانية والثلاثين الأخيرة في سفر التكوين في التوراة اليهودية، ولكن باعتبار أن التوراة كتبت بعد أكثر من ألف وخمسمائة سنة من ذلك الغزو فإنه يمكن القول بإن ذلك الغزو استمر حوالي خمسمائة عام، بدأ عندما قام بدو بني إسرائيل بالدخول إلى المراعي الخضراء غير المستعملة في فلسطين وازدادت أعدادهم مع مرور الزمن إلا أنهم كانوا يحاربون بعضهم البعض، ثم تحولت حروبهم ضد أهل البلاد الأصليين، وكانت القبائل البدوية من بني إسرائيل قد تعلم أفرادها حرث الأرض، وتحولوا إلى مزارعين، ثم تعلموا بناء المدن ليعيشوا فيها، وأيامها لم يكونوا قد عرفوا الإله "يهوه"، ونسوا آلهتهم الحيوانية (الطوطمية) وكذلك الآلهة الشمس والقمر، وتحولوا لعبادة الآلهة الأم (عشتروت)، ورمزها الذكري الثور، وعبدتها النساء بإعطاء عذريتهن وبكاراتهن وأجسادهن للرجال الذين يؤمون المعبد لعبادة الآلهة "عشتروت".

أما الغزو الثاني فإنه يعتقد أن يكون قد بدأ قبل حوالي ٣٥٠٠ سنة واستمر حوالي مائة عام وربما أكثر، هذا هو الغزو الذي نقرأ عنه بصورة مربكة وغامضة في أسفار يشوع، القضاة هم أولئك الذين وصفتهم التوراة بالأبطال، مثل: جدعون وايهود وبفتاة وتولا وسامبسون وإبزان، فكانوا رؤساء الحرب الذين قادوا قبائلهم الخاصة ومزيجًا آخر من القبائل الأخرى.

الفارق الزمني بين هذا الغزو والغزو الأول لفلسطين قد اختصر ما عرف من قبل بنصف قبيلة "منسي" وقبائل "روبين وجاد"، إذ كانت هذه القبائل الثلاث قد بنت مدنًا لها على الضفة الشرقية من نهر الأردن، وقد ساعدت القبائل الأخرى الغازية لفلسطين، أما المراحل المتأخرة للغزو الثاني فقد تزعم الحركة اليهودية رئيس الحرب "يشوع بن نون" كما جاء في سفر العدد الإصحاح – ١٣، وهنا تذكر التوراة بأن موسى غيَّر اسم هذا الرئيس من "شوع إلى يشوع بن نون"، غير أن عدد من المؤرخين الذين بحثوا في تاريخ بني إسرائيل يؤمنون بأن موسى ويشوع بن نون لم يسمعا بعضهما ببعض ولم يعاصرا بعضهما، فيشوع هو الذي جمع القبائل اليهودية في اتحاد وهو الذي قاد عبورهم نهر الأردن والتغلغل في فلسطين، وهل هو من قام بهدم أريحا؟ الجواب على هذه التساؤلات يأتي من أخر المكتشفات الأثرية التي تم العثور عليها مؤخرًا عام ١٩٩٦ والتي تحكي قصة أريحا، وقد ثبت لعلماء الأثار من هذه المكتشفات أن مدينة أريحا الكنعانية كانت مدينة مدمرة قبل وصول بني إسرائيل بقيادة يشوع بن نون إليها بما لا يقل عن ثلاثمائة سنة، وهذا بطبيعته ينفي أن تكون رواية هذه المدينة الواردة في التوراة صحيحة، وأن يشوع بن نون لم يكن هو القائد الذي دخل إلى فلسطين وهدم أريحا، ما يعرف عن يشوع أنه كان قائدًا عسكريًا جيدًا وكان بامكانه محاصرة المدن المسورة، ويعتقد بعض المؤرخين أن عددًا

من المدن التي حاصرها استسلمت له، إلا أن كل ذلك يقوم على الحدس والتخمين، وليس هناك ما يؤكد هذه الادعاءات التي وردت في التوراة اليهودية.

تقول التوراة بالتحديد إن ست أو سبع قبائل اشتركت في الغزو الثاني، لفلسطين وعلى مدار عدة قرون تمكنت هذه القبائل من احتلال المدن الحصينة، فأعادوا إعمارها وتعلموا نمط الحياة الريفية من الكنعانيين ثم عبدوا الآلهة الأم "عشتروت" و"الثور"، ثم ما لبثوا وأن حاربوا بعضهم بعضًا، إلا أنهم ظلوا متحدين في الجنوب بسبب ما كان يتهددهم من مركزي خطر في الجنوب وهما: اتحاد المدن الفلسطينية الخمس ومدينة القلعة المحصنة "القدس"، منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا؛ كانت القدس هي العامل المركزي في التاريخ اليهودي، وفي العقل اليهودي، وفي الحلم اليهودي.

المدينة بذاتها قديمة جدًا بنيت قبل خمس آلاف سنة، وقد أسسها وبناها اليبوسيون الكنعانيون، مدينة تربض على مرتفع محصن، وقد قيل عن هذه المدينة إنها تتحكم في كافة أرض كنعان بحكم موقعها المتميز، كما أنها نقطة الملتقى ومركز الترانزيت للتجارة بين شمال أفريقيا وسمرقند في شمال آسيا، وتسميتها تعود إلى الكلمة العربية الكنعانية (ياره) وتعني "صخرة"، وشالوم وهو اسم لإحدى آلهة الكنعانيين القدماء، عمَّرها وسكنها الكنعانيون اليبوسيون قبل مولد

السيد المسيح عليه السلام بحوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ويزيد، تاريخ مدينة القدس يدحض الأكاذيب الصهيونية القائلة بإن تسميتها عبرية، وأن المدينة عبرية وأن الملك هيرودس هو مؤسسها، أما الغزو الثالث فقد حدث قبل ٣٢٥٠ سنة، قاده بداية موسى اللاوي، وهذا الغزو يختلف عن الغزو السابق، حيث كان جميع الغزاة من بني إسرائيل بقيادة يشوع بن نون، بعكس الغزو الثاني الذي كان معظمه ومعظم قادته من المصريين، يشوع بن نون كان يُعد قائدًا عسكريًا مصريًا ولهذا فإن هناك احتمالاً كبيرًا بأن يكون موسى لا يعرف يشوع ولم يسبق أن التقيا، حيث أن زمان كل منهما يختلف عن زمان الآخر، ومن الغريب أن أحداث ووقائع ذلك الغزو الموسوي لم تدون ولا يُعرف عنها أي شيء على الإطلاق، ولكي نتمكن من متابعة قصة الغزوات لأرض كنعان التي قامت بها عدة قبائل من قبائل بني إسرائيل، ولنعطي إحساسًا بظهور أقوام تسمي نفسها "الأقوام اليهودية"، علينا إذن أن نفحص بتدقيق عدد من أجزاء التوراة حيث أنها المصدر الوحيد تقريبًا عن حياة موسى وأعماله.

الأسفار الخمسة الأولى في الكتاب المقدس المعروف لدى العالم المسيحي تسمى "البنتاتويخ" بمعنى أسفار موسى الخمسة، أما اليهود فيسمونها "التوراة" بمعنى القانون، وهذه الترجمة مقبولة لدى الغرب حيث لا يوجد لها مرادف في اللغات اللاتينية، وتقول الأسطورة إن موسى كتب تلك الأسفار الخمسة بيده تحت وحي مباشر من "يهوه"

الإلـه، ومما يلفت النظر بشكل قوي أن أسفار يشوع والقضاة والسفرين السادس والسابع في الكتاب المقدس تحتوي على إصحاحات تسبق تدوين التوراة بكثير، بينما كتبت أسفار موسى الخمسة "البنتاتويخ" بشكلها الحالي؛ بعد وفاة موسى بأكثر من سبعمائة سنة، تعكس الأسفار الأخرى التي أخذت بشكل عام من مصادر موغلة في القدم، وروايات تلك الكتب طويلة جدًا ومملة في ذات الوقت تُشير غالبًا إلى صبيانية لا يتسع المجال ولا تتوفر الرغبة في استعراضها لما تحويه من سخافات وإباحيات في منتهى الغرابة.

أسفار الخروج واللاويين والعدد وسفر تثنية الاشتراع تتحدث عن موسى، ولكن قصة وفاته الغريبة ودفنه في مكان مجهول مذكورة فقط في سفر تثنية الاشتراع، وهو السفر الذي يدَّعي اليهود أن الذي كتبه شخص واحد بعد وفاة موسى بستمائة سنة ويزيد، وسفر الخروج يتحدث عن حياة موسى في بدايتها قصة رجل حيّ، وسفر اللاويين ينتهي بقصة موسى وهو يتسلم الألواح من الله على جبل سيناء، وسفر العدد مثل سفر اللاويين جعل من موسى مانح القانون، أما سفر تثنية الاشتراع فإن القصَّاص أو الراوي دون القصة التالية:

"صعد موسى من سفوح مؤآب إلى جبل نيبو ووصل إلى "السبغاة" (القمة) مقابل أريحا وهناك أراه الإله يهوه كل الأرض، من جلعاد حتى دان (منطقة تل أبيب الحالية وتشمل مدن: يافا واللد والرملة

العربيات وتل أبيب وملبس ورامات جان وقيسارية وعدد آخر من القرى المحيطة بالمدن الفلسطينية واليهودية)، وكذلك كل أرض نفتالي وأرض إفرايم ومنسي وكل أرض يهودا حتى البحر الغربي (البحر المتوسط) والنقب والسهل ووادي أريحا ومدينة أشجار النخيل "أريحا" حتى "تسوعر" وقال له يهوه: خذ الأرض التي أقسمت أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب، سوف أعطيها لك، لقد جعلتك تراها بعينيك ولكن سوف لا تعبر إلى هناك، وهكذا مات موسى خادم الرب "يهوه"، هناك في أرض مؤآب بناء على أمر من الرب، ودفن في الوادي في أرض مؤآب قرب "بيت بوعر"، ولا أحد يعرف مكان دفنه حتى يومنا هذا".

لماذا لا أحد يعرف مكان دفن موسى بينما ظلت أماكن القبور في ذاكرة بني إسرائيل على مرّ العصور؟ إنهم يعرفون قبر إبراهيم وقبر إسحق وقبر يعقوب، فهل يعقل أن لا يعرفوا قبر رجل كان رمز بني إسرائيل الأعلى؟ ولماذا لم يمت موسى في أرض إسرائيل التي يزعمون؟ وكيف جاء إلى أرض مؤآب وغابات الأكاشيا (غابات السنط أو الصبغ العربي) في وادي الأردن، بينما عاش حياته في برية سيناء يعبد "يهوه" إله سيناء؟ لا أحد يستطيع الإجابة على هذه التساؤلات بالتأكيد، إلا أنه يمكننا استنتاج التالي:

أولاً: استعمل القدماء أماكن ومدافن موتى عظمائهم وأبطالهم أساسًا للمطالبة بالأرض التي يدفنون فيها، فإن كان موسى دفن قرب بئر السبع مثلاً فإن ذلك سيضاعف حجة اليهود في المطالبة بالأرض الخصبة في المنتصف الجنوبي لفلسطين.

ثانيًا: إن كاتب سفر تثنية الاشتراع كان مصممًا على خلق صلة بين موسى ويشوع بن نون ولكي يثبت ذلك كان ينبغي أن يكون موسى في الشمال في الأماكن التي عبرها يشوع بن نون إلى أرض كنعان.

ثالثًا: عندما أرى "يهوه" موسى أرض الميعاد المزعومة، أعطاه أراضي افرايم ومنسي الخصبة والتي تعد قلب فلسطين (السامرة) العدوة التاريخية لليهود، ومن الواضح أن هذا السفر كتب لأسباب سياسية حيث أن الروايات التي وردت فيه تضع موسى واللاويين واليهود في وضع يمكنهم ويمكن أحفادهم بالادعاء بكل أرض كنعان ملكًا أزليًا ورثوه بوصية من الإله "يهوه" وعلى لسان موسى الذي كان بريئًا من هذه الأراجيف اليهودية.

هناك سبب قوي للاعتقاد بأن اليهود وحلفاءهم غزو بلاد كنعان من الجنوب أكثر من الاحتمال بغزو تلك البلاد من الشرق، وسواء قاد موسى عملية الغزو أو لم يقدها، فهذه مسألة ليست بالأهمية أكثر من الحقيقة، وهي أن موسى كوَّن وحدة متماسكة من اليهود اللاويين أسست مبادئ الإله "يهوه" وقادت هؤلاء الناس إلى مسرح التاريخ،

إنه من الممكن جدًا وفي عهد زعامة موسى أن يكون اليهود طردوا إلى النقب عدة مرات، بعد محاولاتهم المتكررة الفاشلة بالوصول إلى تلال القدس، وهكذا فإن قصة الأربعين عاما والتيه في برية سيناء ربما يكون لها جذور من الحقيقة في تلك الأماكن، ولكن لم يكن تيهًا بل كان يتمثل في غزوات متكررة فاشلة، حيث كانوا يتشتتون بعد كل فشل ثم يعيدوا تجميع أنفسهم لغزوة أخرى، كما أن هناك اعتقاد لدي اليهود أنفسهم أن موسى قد دفن في قبر صخري في برية سيناء، ويحتمل أن يكون "جبل يهوه" الذي كان يسمى بين الفترة والأخرى "جبل سيناء" أو جبل "حوريب"، ويذكر أن هناك جبلاً آخر في سيناء يبلغ ارتفاعه سبعة آلاف قدم عن سطح البحر الأحمر في الزاوية الجنوبية الشرقية لشبه جزيرة سيناء، ولكن لا أحد يعرف إن كان هذا هو "جبل يهوه" المزعوم أو جبل الرب المقصود.

بعد وفاة موسى استمر اليهود في حروبهم مع الفلسطينيين، وأشهر تلك الحروب كانت الحرب التي دامت مائة عام بين غزو فعلي وبين غزوات متقطعة، وباءت معظم غزواتهم بالفشل، حيث كان الفلسطينيون على مستوى رفيع من الاستعداد العسكري والتقني، وكانت جيوشهم مدربة تدريبًا جيدًا لصدّ غزوات برابرة الصحراء الذين عبروا إليهم من الجنوب عن طريق سيناء، مما اضطر الفلسطينيين إلى إقامة مراكز مراقبة عسكرية، امتدت عبر النقب إلى سيناء، لمراقبة بني إسرائيل ومنع تسللهم إلى بلاد كنعان، لكن

اليهود بعد مائة عام استطاعوا الدخول إلى جنوب فلسطين، ونتيجة حرب المائة عام مع الفلسطينيين؛ أصبح بنو إسرائيل يتعطشون للدماء، واعتبروا الإله "يهوه" إله الحرب والانتقام، وإله العدل في آن واحد، كانوا مشاكسين يبحثون دائمًا عن المتاعب وإثارة القلاقل والحروب، بالادعاء بأحقيتهم برعي ماشيتهم في أراضي الآخرين، وقد تمكنوا من انتزاع الحق في الدخول إلى المناطق الشمالية في فلسطين والدخول إلى جبال لبنان الخضراء حتى منطقة صيدا في الجنوب اللبناني، وأخذوا يدَّعون بأن هذه المنطقة هي جزء من أرض إسرائيل، وبعد ذلك اتخذوا اسمًا لهم في كل أنحاء بلاد كنعان فأصبحوا يعرفون بالاسم الجديد "يهودا" والتسمية تعني "شبل الأسد"، يتضح مما تقدم أن التاريخ اليهودي هو تاريخ آلهة وتاريخ معتقداته وفلسفته ودوره الفريد على مسرح الشؤون الإنسانية، فهناك من يقول بإن موسى أقام مبدأ التوحيد بإعلان كلمة الله، إلا أن كل هذا ليس أكثر من وجهة نظر ميتافيزيقية، أي نظرة فيما وراء الطبيعة وأنها على أية حال سرقة للحقيقة، حيث أن الحقيقة أهم من ذلك وأبعد بكثير، يهوه إله موسى كان إلهًا بين آلهة كثيرة إلا أن موسى حاك يهوه لشعب، وهو الشعب اليهودي، مثل "أشبال الأسود" كما تعنى هذه التسمية "يهودا" بالعبرية القديمة، وقد قامت هذه الحياكة على ما يعرف بالعبرية "بريت" أو "ميثاق"، وقد جاء فيه قول "يهوه" (أنا الله يهوه إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر

بيت عبوديتكم، فلا تتخذوا آلهة أخرى إلى جانبي) وكما سلف ذكره في هذا الكتاب كان إله لكل قبيلة وعشيرة من قبائل وعشائر بني إسرائيل، وكانت لهم مذابح قرابين في كل حقل زيتون وفي كل غابة أرز، من الشمال إلى جنوب في كل أرض كنعان، كان لهم معابد عشتروت ومعابد "كاهنات عشتروت" اللاتي كن يقدمن أنفسهن للمتعة الجنسية والجماع الجنسي بين المتعبدين، وخادمات المعبد من ضمن الطقوس الدينية اليهودية، إلا أن إله موسى كان يختلف عن تلك الآلهة، فقد عرف بالإله "يهوه"، وهو إله قبيلة اللاويين التي ينحدر موسى من سلالاتها وكان من الصعب جدًا أن تتعايش هذه الآلهة جنبًا إلى جنب، ولم تكن المسألة سهلة.

§ الفصل الرابع

الملوك والأنبياء

صموئيل كان كاهنًا للإله "يهوه" وكان من قبيلة اللاويين، حاز على ثقة الاتحاد الشمالي وذُكر أنه اهتم كثيرًا بمذابح القرابين والمصعدات المقدمة للإله "يهوه"، وكان أيضًا قيمًا على الشؤون الدينية وطقوس العبادة، عاصر زمن ازدهار عظمة الاتحاد بين قبائل الفلسطينيين والكنعانيين أهل البلاد الأصليين، لهذا شعر بالأخطار تتهدد بني إسرائيل في شمال فلسطين، حيث أن طبيعة اليهود تتعارض وترتعب من الاتحادات لدى الشعوب غير اليهودية، لأن في الاتحاد قوة وهذه القوة تشكل أخطارًا كبيرة لهم، تمامًا كما هو الحال في هذا الزمان، حيث نلمس أن أي اتحاد بين العرب أو المسلمين؛ يقابل بضجة إعلامية كبيرة منددة بفكرته، وإن فشلت الضجة الإعلامية والتنديد يعملون على استعمال القوة العسكرية أحيانًا، وأحيانا أخرى يلجأون إلى الاغتيالات السياسية لأصحاب فكرة الوحدة أو أي فكرة أخرى لا تكون لصالحهم، وحرب الخليج بين الصهيونية الدولية وبين العراق واحتلال ذلك البلد العربي لأكبر دليل على ذلك.

نظرًا لإحساس "صموئيل" بتلك الأخطار الاتحادية؛ عمل على تقوية اتحاد القبائل اليهودية في شمال فلسطين لمواجهة هذه الأخطار، ولجأ كي يحقق ذلك إلى قبيلة اللاويين، ومن أجل تحقيق أغراضه سمح لقبائل اليهود الشمالية بالاستمرار في عبادة الآلهة الطوطمية إلى جانب الإله يهوه، والآلهة الطوطمية هذه عشتروت والنحوشتان والثور، ومن الجدير بالذكر أن مركز قيادة اتحاد الشمال اليهودي كان في منطقة عرفت بمنطقة "السامرة"، وقد واجه صموئيل صعوبات كبيرة في توحيد يهود "السامرة" لمواجهة الفلسطينيين المتحالفين مع الكنعانيين، ضد الغزاة الذين عبروا إليهم من وراء النهر الكبير "نهر الأردن"، واجه صموئيل مشكلة شائكة في اختبار قائد حرب لجيشه، يكون في مقدوره أن يقود جيش الاتحاد بين يهود الجنوب ويهود الشمال، الذين لم يكونوا متجانسين على الإطلاق، حيث أن يهود الشمال يبغضون يهود الجنوب الذين ذاقوا مرارة الحياة في الصحاري القاحلة، تمامًا كما هو الحال في إسرائيل الآن في بغض اليهود الغربيين "الاشكنازيم"، لليهود الشرقيين "السفراديم"، وكانوا شرسين في طباعهم بسبب قسوة الصحراء، وكانوا لا يزالوا يعتبرون الانخراط في العسكرية هو نوع من عبادة الإله "يهوه"، ولهذا كانوا يحتقرون يهود الشمال الذين يعبدون الآلهة الطوطمية، احتقروا عبادة الثور، واحتقروا الكاهنات اللائي كن يقدمن أنفسهن للرجال في معبد عشتروت كنوع من أنواع العبادة.

من بين قبائل الشمال كانت قبيلة بنيامين أكثر قبائل الشمال مبغوضة ومكروهة من القبائل الأخرى في الاتحاد الصموئيلي، وكان البنياميتيون يعدّون الغوامض الهامة في التاريخ اليهودي، بل كانوا يعتبرون وصمة عار وخزي لكل القبائل اليهودية، كان مظهرهم يوحي بأنهم من بني إسرائيل، ولكنهم كما يقول المؤرخون اليهود ليسوا من قبائل بني إسرائيل، برغم أنهم يتكلمون لغة القبائل الأخرى ويعبدون الإله "يهوه" كبقية القبائل اليهودية. كانت منطقتهم من أفقر المناطق وأكثرها عرضة للمخاطر، أعطيت لهم الأودية العميقة والتلال الوعرة بين القدس والساحل الفلسطيني في منطقة بلغت عشرة أميال طولاً وعشرة أميال عرضًا فقط، رعوا الأغنام واعتنوا بأشجار الزيتون، وكانوا يدخلون في مناوشات عديدة بين الحين والآخر مع الفلسطينيين واليبوسيين الكنعانيين، وعاشت القبيلة البنيامينية حالة حروب متواصلة مع جيرانها وكان الأصدقاء والأعداء على السواء يكرهون التعامل معهم، إلا أنهم لعبوا في وقت لاحق دورًا بارزًا في التاريخ اليهودي، وبرغم أنهم قبيلة صغيرة العدد، فقد استطاعوا أن يحشدوا حوالي ألف مقاتل منهم، بما في ذلك الأولاد فوق سن الثالثة عشرة، وهذا السبب الذي جعل صموئيل يختار من هذه القبيلة رؤساء الحرب بزعامة القائد الأعلى "شاول" (طالوت)، الذي تولى المناطق الشمالية ووضع تحت إمرته خيرة المقاتلين من البنياميتيين، برغم أن هذا القائد كان يبغض

الآلهة "عشتروت" وقام بتعذيب من يعبدوها حيث اعتبر نفسه خادمًا للرب يهوه، تمكن طالوت في البداية من وقف هجمات الفلسطينيين وكان على وشك أن يوقع بهم الهزيمة إلا أن عناده وجبروته والظلام الذي كان يخيم على عقله نتيجة الكبرياء والغرور؛ أدى إلى إضعاف اتحاد الشمال، وقد تمرد على صموئيل الذي جاء به إلى رئاسة الجيش، وقتل أولاد صموئيل الثلاثة في معركة بينهم، بعدها بارك طالوت زعيمًا شابًا جديدًا اسمه "داود".

obeikandl.com

§ الفصل الخامس

داود بن يسي الافراتي

(وقتل داود جالوت)

- داود الصغير يقتل جالوت بالمقلاع والحجر -

من بين المرتزقة الذين ضمهم (طالوت) إلى جيشه كان "داود بن يسي الافراتي"، وافراتا هي مدينة بيت لحم الفلسطينية، وحيث أن داود وأهله يعيشون في تلك المدينة؛ فقد عرف والده باسم "يسّي الافراتي" بمعنى يسي التلحمي، وكانت سياسة طالوت أن يستقطب المرتزقة في جيشه، فعندما كان يرى رجلاً قويًا أو تقع عيناه على رجل شجاع يضمه إلى جيشه فورًا، داود كان في أساسه راعيًا ينحدر من الطبقات المتواضعة، فعندما ضمه طالوت إلى خدمته؛ لم يكن يعرف شيئًا عن السلاح، قبل السيف وعدة الحرب وحاول أن يعمل بهما ولكنه لم يكن معتادًا على ذلك ولا ملمًا بعمل هذه الأسلحة، فتركها كلها واعتمد على سلاحه البدائي هو "المقلاع" والحجر يستغلهما، وكان أول فعل قام به أن قتل بالمقلاع "جالوت" ملك الفلستينوس، والذي زاد من تمسك طالوت به أنه كان عديم الأخلاق ماكرًا في اللعب، ورجل حرب واسع الحيلة والمراوغة والدهاء في أمور كثيرة.

يقول المؤرخون إن داود خدم طالوت فترات مختلفة، لكن مهنته العسكرية كانت على يد الفلستينوس أنفسهم، إذ تعلم منهم فنون القتال بما في ذلك استعمال سلاحهم الحديدي، وازدهر لدرجة أن الملك "أخيش" ملك "جاث" كافأه بأرض إقطاعية، ربما يكون عرف على نفسه بأنه من الفلستينوس، ولكنه في النهاية حصل على عرش يهودا، أحيانًا بصفته من الفلستيوس وأحيانًا كقائد معارض

لطالوت، فقد أسس مجموعة من الفرسان المتخصصين الذين أقسموا له على إخلاصهم، وكانوا يتبعون له شخصيًا، وكانوا يتوقعون أن يكافأهم بمنحهم أراضي في إقطاعه، وهذه هي القوة التي مكنته من أن يصبح ملكًا على "يهودا" بعد وفاة طالوت..

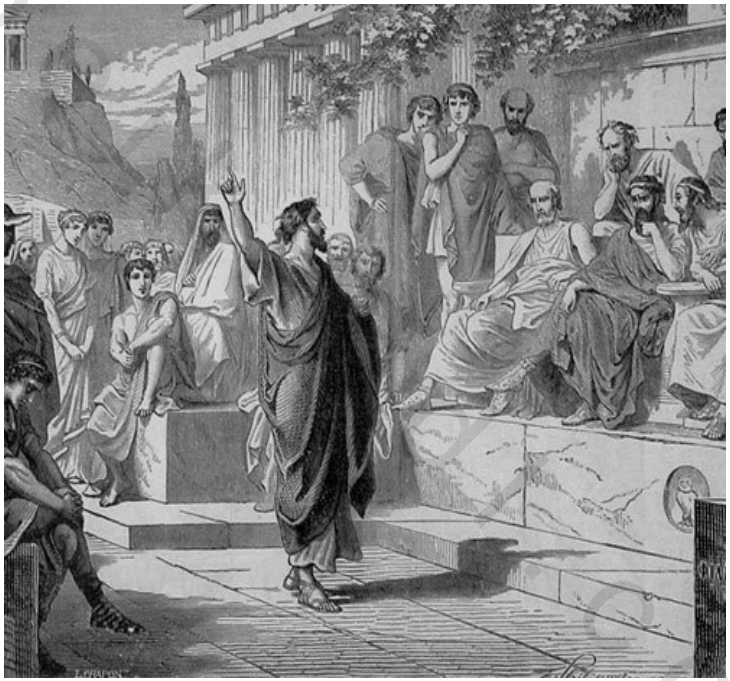

- الملك طالوت يناشد قومه لمبارزة جالوت -

كان ينتظر أن تنفجر الخلافات في مملكة الشمال، واغتيال وريث طالوت هناك "ايشبول"، عند تلك النقطة قدم له حكماء إسرائيل عرش مملكة الشمال بموجب ميثاق دستوري.

كان مُهمًّا أن يغتنم داود هذه الفرصة، فمملكة داود لم تكن بداية وعلى الأقل كان اليهود أمة منسقة، ولكن كانوا مؤسستين منفصلتين كل واحدة منهما تعقد معه اتفاقية شخصية، وقد أصبح داود ملكًا ناجحًا ومحبوبًا في إسرائيل، فكان ملكًا وحاكمًا لدرجة أنه بعد ٢٠٠ سنة من وفاته رأى اليهود أن فترة حكمه التي دامت أربعين عامًا كانت العصر الذهبي لليهود في فلسطين، إذ كان حكمه دائمًا غير مستقر، وجميع القوات التي يعتمد عليها كانت من المرتزقة غير اليهود، فقد تركزت قوته في بناء جيش محترف، وكان ضباطه ينبغي مكافأتهم بالأرض ليستطيعوا تحويلها إلى إقطاعيات، ولكن كي يكافأهم بالأرض كان عليه أن يمتلكها أولاً، وهذا لا يكون دائمًا إلا بهزيمة الآخرين، ومن هنا قامت ضد حكمه المؤامرات والتمرد وأهمها ذلك التمرد الذي قاده ابنه "ابشالوم" وكانت القبائل لا زالت انفصالية بالغريزة، فقد سئموا تكاليف حملات داود، وازداد التمرد والثورات ضد حكمه، لكنه تمكن من إخماد التمردات التي قامت ضد حكمه بالآلة الحربية التي لديه، غير أن فترة الأربعين عامًا من حكمه كانت تتسم غالبًا بعدم الإزعاج.

عمومًا كان داود ملكًا عظيمًا لأسباب ثلاثة:

أولاً: أنه جمع بين دور الملكية والكهنوتية بطريقة لم تكن ممكنة لطالوت سلفه، فطالوت لم يكن له خليفة مباشر على العرش، وإن كثيرًا من سلطاته الروحية الدينية قد آلت إلى داود، وبرغم شروره كان داود واضحًا بأنه رجل بشعور ديني عميق، مثل ابنه ووريثه سليمان، وكان موهوبًا بما في ذلك التخيل الفني القوي، أما التقاليد التي تقول إنه كان موسيقيًا أو شاعرًا أو مرنمًا فهي مرفوضة بشدة، إذ لم يكن أيًّا من هؤلاء.

ثانيًا: كملك يبدو أنه تسلم التبريك الإلهي حيث أن إنجازاته العسكرية كانت لا تضاهى، فلقد هزم الفلستينوس وحصرهم بشكل دائم في بقعة مستطيلة وضيقة على الساحل، بهذا العمل الذي عجز عنه طالوت وهو تخفيض الجيوب الكنعانية المتبقية ثم تحرك إلى الشرق والجنوب والشمال، فأرضا سلطانه على "عمون ومؤآب وسدوم وارماز وبار"، وحتى دمشق في الشمال الشرقي البعيد، وكانت انتصاراته العسكرية محاطة بالتحالفات الدبلوماسية وبزيجات ملكية بمعنى "الازدهار" لإمبراطورية إسرائيلية صغيرة اعتمدت على أحداث التاريخ، واستفادت من التداعيات التي شهدتها الإمبراطوريات المجاورة.

كانت الإمبراطورية في الجنوب "مصر" قد تراجعت، وإمبراطوريات الشرق الآشورية والبابلية لم تكن قد تمكنت من التكامل، وبسبب هذا الفراغ ازدهرت مملكة داود، كما أن خبراته وطاقاته ومعرفته وأسفاره وإلمامه بالعوامل الاقتصادية أيضًا أدت إلى إمكانية التوسع في مملكته، فقد رأى داود أن يقيم سلطته على طرق التجارة في المنطقة وعقد اتفاقات اقتصادية وتجارية مع مملكة المدينة الغنية "صور"، وكان داود دوليًا بينما كان القادة الذين سبقوه على نطاق ضيق.

ثالثًا: أسس داود عاصمة وطنية دينية له والتي كانت أيضًا ضمن فتوحاته في الوقت الذي لم يتمكن الإسرائيليون فيه من أخذ القدس برغم محاولاتهم التي دامت قرابة مائتي عام، لهذا كانت أهم مدينة استراتيجية على مستوى الداخل، وقد كان يسكن المدينة اليبوسيون الكنعانيون الذين أسسوا المدينة من قبل، ولم يتمكن أبناء مملكة يهودا من طردهم، لكن اليبوسيين سمحوا لأبناء يهودا بالعيش في وسطهم، وظلت القدس تتحكم بالطرق الرئيسية إلى الشمال والجنوب في الداخل، إضافة إلى كونها مدينة التقاطع بين الجنوب والشمال، وعدم تمكن اليهود من أخذها من قبل، كان من أهم العوامل التي أدت إلى فصل التجمعات اليهودية، فأصبحت هناك مملكتان يهوديتان، الأولى في الجنوب وهي مملكة يهودا والثانية في الشمال وهي مملكة إسرائيل.

بضم القدس اعتقد داود أنه قادر على ضم جزئيها في جزء واحد، فمدينة القدس التي نعرفها اليوم كانت قد بنيت على ثلاثة أودية: وادي هنوم في الجهة الغربية، ووادي قدرون في الجهة الشرقية، ووادي الجبانين في الوسط الذي يمتد جنوبًا ليلتقي مع وادي قدرون، مدينة يبوس الأصغر كانت تقوم على الجناح الشرقي، ويقول المؤرخون إن الحفريات التي عرفت بحفريات "كاثرين كينتون" وأن ما جاء وصفه للمدينة في الفصل الثاني من سفر "صموئيل" أصبح معروفًا ماذا حدث أثناء حصار داود للمدينة.

اليبوسيون مثل المواطنين الآخرين من مواطني المدن الفلسطينية الأخرى، مثل حيزر وجبعون ومجيدو قد انشأوا أنفاق سرية تربط داخل المدينة مع عيون (منابع) المياه، ليضمنوا وصول الماء إليهم في حالات الحصار، وقد فكروا بأن هذا يمنحهم القوة وكانوا واثقين بأنهم يتحدون داود، غير أن داود عرف بوجود النفق، فأعلن عن طلب متطوعين وقال في ذلك اليوم: "الذي يتمكن من الوصول إلى المزراب ويحطم اليبوسيين والكفيفين والعرج وكل الذين يكرهون داود، سيكون الرئيس والقائد"، وتمكن يوآب ورجاله من استغلال إعلان داود، فتسلقوا إلى نفق الماء ودخلوه آخذين المدينة على حين غرّة.

كانت تصرفات داود مع المدينة من واقع أهميتها السياسية، لهذا لم يقدم على مجزرة ضد سكانها اليبوسيين أو أنه عمل على طردهم

خارج المدينة بل على عكس ذلك تمامًا، فقد كان مهتمًا بتحويلهم إلى مخلصين وتابعين له، أعاد ترميم أسوار المدينة واحتل حصن يبوس أو حصن صهيون كما كان يسمى، وبنى ثكنات عسكرية للرجال الأشداء وقصرًا لنفسه، واشترى من أخر حكام المدينة الأرض التي يمكن أن يجعل منها مزارًا لكافة الشعب اليهودي، ثم احضر تابوت العهد، الذي كان أهم البقايا الدينية الثمينة التي يمتلكها اليهود كرمز لوحدتهم، ووضعه في المدينة تحت رعاية وحماية عرشه وجيشه الخاص، أدت هذه الأعمال إلى تقوية وضعه الشخصي وتميزت الديانة اليهودية الوطنية والتف الشعب حوله.

كان من المفيد أيضًا لداود نقل تابوت العهد إلى القدس، فقد أعطى هذا النقل عاصمته الطابع الديني، فإنه لم يبنِ معبدًا ضخمًا مصاحبًا لتاجه وخطه الملكي ليخصص للتابوت، فالتابوت كان قطعة متواضعة من الأثاث الديني، يحتوي على أصل الميثاق ذاته وكان عزيزًا على بني إسرائيل إذ يذكرهم بأصولهم المتدينة ويقوم مقام العقيدة القديمة وطهارة العقيدة الدينية اليهودية، وقد جاء في التوراة فيما بعد ما يؤكد ويبرر فشل داود في بناء معبد لتابوت العهد، حيث أن الإله "يهوه" لم يسمح له بذلك، حيث أنه كان فوق كل المحاربين، رجل صعب يسفك الدماء، وقد قيل إنه كان منشغلاً جدًا في الحروب والغزوات وفي توسيع ملكه على حساب الشعوب الضعيفة، وكان الإسرائيليون يسعون إلى الحروب بإطلاق الأبواق،

وكان تابوت العهد يتقدمهم إلى ساحات المعارك كشعار للحرب، وكان "يهوه" كما يدَّعون يجلس في التابوت لينصرهم على أعدائهم.

حروب داود كانت من وجهة نظر بني إسرائيل في أعلى درجة من مباركة وموافقة الإله "يهوه"، أما الدور الثاني فهو أكثر معقولية، إذ كان حكم داود في مدينة القدس حوالي ثلاثة وثلاثين عامًا، كان معظمها سلميًّا، فلو أراد أن يبني معبدًا لكان أعطاه الأولوية وقدمه على كافة مبانيه العديدة وأنشطته فيها، إلا أنه من المحتمل أن يكون لا يرغب في تغيير الطبيعة والتوازن في عقيدة بني إسرائيل الدينية.

قديمًا كان تابوت العهد يُمثل المركز المادي لعبادة بني إسرائيل، وكان رمزًا للديمقراطية العقائدية، وعندما أقام بنو إسرائيل في أرض كنعان شكروا الإله "يهوه" وقدموا له القرابين والمصعدات في الأماكن المرتفعة، وأقاموا مذابح المصعدات فوق التلال والجبال وفي المرافق التاريخية، وكانت عبارة عن مباني مسقوفة أو معابد، تمكن مؤخرًا الأثاريون من معرفة عدد منها مثل: شيلو، ودان وبندل، والجلجال ومتسبا وبيت لحم وحبرون (الخليل) وخمسة مذابح أخرى أصغر حجمًا.

يقول المؤرخون إن داود كان يتمتع بضمير كبير من حيث الديانة اليهودية والمجتمع اليهودي، أكثر من الملك طالوت، أو أي واحد من أسلافه مثل: جدعون، فقد اغتنم الفرصة بأن تكون حكومته حكومة دينية وليست حكومة تقليدية، ومن هنا كان الملك داود لا

يمكن أن يكون حاكمًا مطلقًا على الطريقة الشرقية التقليدية، ولا حتى الدولة تكون مطلقة أيضًا، على الرغم من أن كل واحد يتحمل مسؤوليات وواجبات المجتمع أو ممثلي الملك أو الدولة ولا تكون في جميع الحالات والظروف المسؤولية غير محدودة على الفرد أيضًا، واليهود بعكس الإغريق والرومان الذين لا يعترفون بهذا المبدأ أو مدينة الدولة، والمجتمع كخلاصات لشخصيات قانونية وامتيازات وحقوق، فإن الإنسان لا يستطيع أن يخطئ أو يقترف الجرائم ولكن لا يجوز اقتراف الجرائم ضد الدولة.

عمل داود هذا على نقل بني إسرائيل من حالة الحرب إلى حالة السلام، ونصَّب نفسه في وقت لاحق ملكًا على كل القبائل اليهودية واستمر ملكًا حاكمًا لمدة أربعين عامًا، بعد وفاته تولى الملك ابنه سليمان وحكم في بني إسرائيل أربعين سنة أيضًا، ظلت المملكة متماسكة بعد وفاة سليمان إلى فترة قصيرة في عهد ابنه "رحبعام"، حتى انهار ذلك التماسك وفشل الاتحاد وانفصل اليهود عن بعضهم البعض وظلوا مشتتين، إلى أن قام الآشوريون باحتلال منطقة الشمال من بلاد كنعان، فسبوا اليهود من هناك إلى بابل في العراق وقد عرف ذلك السبي بالسبي البابلي الأول لبني إسرائيل.

وصفت التوراة داود بأنه كان إنسانًا خارقًا وملكًا عظيمًا، صحيح أنه كان بهي الطلعة جميل المحيّا وسيمًا، يؤمن بالقدر وله إحساس جيد بالتاريخ، تزوج من ابنة طالوت، لكنه كان انتهازيًا من الدرجة

الأولى، طموحًا جدًّا، إذ فاق طموحه كل حدود الضمير الإنساني، كان قاسيًا مصابًا بداء العظمة (البرانويا)، وتقول الأسطورة التوراتية إنه قتل جالوت ملك مملكة "جاث" الفلسطينية، فإن كان قد فعل ذلك أو أن في ذلك جانبًا من الصحة؛ كان على الكنعانيين أن يدينوا له بالشكر والعرفان لقتله جالوت، حيث أنه لجأ إلى جالوت في وقت سابق فارًا من (طالوت)، فأجاره وحماه، ثم تفاوض مع جالوت لإقامة تحالف معه ضد اليبوسيين أهل القدس ومؤسسوها، حيث كان دائمًا يحلم باحتلال القدس وجعلها عاصمة مُلكه.

عندما جاء داود إلى القدس على أثر إبرام معاهدة سلام مع اليبوسيين الكنعانيين، وبموجب ذلك السلام ضم جيشهم إلى جيشه واستدعى اللاويين من الشمال، واستطاع عن طريق ذلك التحالف أن يهزم الفلسطينيين في منطقة غزة وأن يحول عدّة حربهم للعمل ضدهم، خصوصًا المنجنيقات التي كانت تستعمل كألآت لتحطيم الأسوار المنيعة، وبهذا تمكن من إنزال شرّ الهزائم بالممالك الفلسطينية الخمس وضم أرضهم إلى ما سماه "أرض اليهود"، واتخذ القدس عاصمة ملكه، ولما استقر له الأمر في القدس استقدم مهندسين فينيقيين الذين كان قد أقام معهم علاقات طيبة، فبدأوا يضعون المخططات والخرائط الهندسية والمعمارية لإقامة الهيكل الكبير للإله "يهوه" وأقام عبادة "يهوه" ليس فقط بين اليهود وحدهم بل امتد ذلك إلى الفلسطينيين أيضًا.

كان داود شاعرًا يفهم آلهة الآخرين وكان ولاؤه للإله "يهوه" شديدًا، فقد قاد اليهود من نصر إلى نصر ولكنه لم يكن يكره الآلهة عشتروت الأم وسمح بعبادتها وسمح للكاهنات ممارسة الدعارة والزنا كنوع من عبادة عشتروت الأم، وسمح أيضًا للفلسطينيين بعبادة الثور، وكان يردد باستمرار عبارته المشهورة: "هناك الكثير من الآلهة ولكن بين كل هذه الآلهة يأتي يهوه الإله في المقدمة دائمًا"، وكان أيضًا قاسيًا وشديدًا في الحرب، وقد قاد من أطلق عليهم "رجال البأس" إلى النقب الجنوبي، وقصم ظهور العموريين هناك ولم يعترف إلا بالسيادة والسيطرة اليهودية، وفرض على القبائل التي احتل أرضها الاعتراف بالسيادة اليهودية، أو مواجهة الإبادة والفناء.

أما بالنسبة للفينيقيين الشماليين فقد أبقى على علاقة الصداقة معهم نظرًا لحاجته إليهم، باعتبارهم سادة البحار ولديهم الطاقات الفنية والعلمية الواسعة، وتواصل تحالفه معهم مدة طويلة، وكانت تأتي البضائع إلى مملكته على سفن الفينيقيين، وكان لا بد من مصادقتهم حيث كانوا منفذه الرئيسي على بلدان العالم القديم وشريان تجارته.

تجلت شهرة داود الملك في سفر "المزامير" الذي ادعى أحبار اليهود أنه كتبه بنفسه، غير أن العلماء من بني إسرائيل يقولون بإنه عندما جرى تحليل تاريخي للتوراة وجغرافيتها؛ اتضح أن سفر المزامير كان قد وضع في وقت لاحق لوفاة داود، بما لا يقل عن ستمائة سنة، كما شكك علماؤهم في مقدرة داود على الضرب على آلة

موسيقية وترية، أو أنه ألَّف بعض أجزاء المزامير أو نقح أجزاء منها، حيث أن عصره كان بعيدًا عن العصور "الهرمونيكية"، أي عصور الطرب والغناء والشعر الإغريقي، فأية مزامير هذه التي نسبت لداود؟ سيظل ذلك بلا شك غامضًا ومجهولاً.

في حالة المقارنة بين موسى وداود وجد المؤرخون أن كُلاً منهما كان مختلف عن الآخر، أما داود فكان الشهوة ذاتها، بل كان لحم اللحم، موهوبًا ذكيًا أصغر الرجال وأكبرهم، أكبر الرجال موهبة وأقلهم نبلاً، كان مغنيًا جيدًا للرب "يهوه"، اغتصب نساء كثيرات وكذب وخدع، كان داود لحمًا وكان الإنسان من اللحم، وهذا بداية الإذلال وبداية الحكمة أيضًا، الحكمة التي تعلمها اليهودي وحاكها في حياته منذ البداية، عندما وضعوا القصة عن مليكهم المحبوب في بيت المقدس جمع اليهود كل كلمات الإطراء، ويقولون "إن هذا الرجل لا نقيمه إلا كما هو ولا نضعه إلا في مكانه الصحيح"، وهنا نلاحظ أن المؤرخين اليهود يحاولون دائمًا تجنب المحاباة والنفاق في وصف عظمائهم، فيعطونهم حقهم في الوصف سواء كان ذمًّا أم مدحًا، بعكس الشعوب الأخرى التي تؤله العظماء وتعطيهم وصفًا أكبر من أحجامهم بكثير، ويظهر ذلك جليًا عند الشعوب الصحراوية حيث أن طبيعة الصحراء تجعل خيال سكانها واسعًا، فإن أحبت هذه الشعوب شيئًا أو شخصًا أمعنت في وصفه، وتمجيده ببلاغة كبيرة،

وتأتي الأجيال لتتناقل تلك الأوصاف اللغوية البلاغية، فتأخذ بها بسبب إعجابها بالنصوص.

لهذا تبدأ القصص الوطنية بالتعاظم إلى أن تصل إلى درجات تأليه الأفراد، كما نلمس اليوم في الكتابات أو الأقوال العربية القديمة منها والحديثة فنرى تناقل القصص والروايات العربية تميل إلى هذا النوع من الخيال الواسع، ونرى الناس عمومًا عندما يخبرون عن شيء يميلون إلى الاستشهاد بالأقوال القديمة الغامضة مصادرها وصحتها، فتقول مثلاً إنه: "عن فلان وعن فلان وأن فلان قال كذا وقال كذا"، ونضيف إلى ذلك بأنه قول ثابت وإنه موثق وَرَدَ في مرجع كذا وكذا دون التحقيق في ذلك القول وتلك المراجع ومصادرها، والتي عادة تسير على نهج واحد، مع فارق باختلاف النصوص البلاغية غالبًا.

obeikandl.com

§ الفصل السادس

سليمان بن داود

سليمان الوريث لعرش داود كان نوعًا مختلفًا، فبينما كان داود عاطفيًا متدينًا، خطَّاء لكنه تواب أيضًا، سليمان على عكس والده.. كان علمانيًا، رجل يعيش لعالمه وسنه وقلبه إن كان له قلب بالأساس كما يصفه المؤرخون الغربيون، المزامير التي نسبت لداود في الكتاب المقدس أساسها روحي في نكهتها ومضمونها، متقاربة لقلب ديانة يهوه، أما الأدب التوراتي فيما يخص سليمان هو نوع من الأشعار الإباحية مثل "نشيد الإنشاد" الذي يتغزل فيه بزوجاته، وهو شعر يُشبه الكتابات الشرقية القديمة، التي ينقصها التفوقية اليهودية الإسرائيلية ومعرفة الإله "يهوه".

ماذا أصبح سليمان؟ سؤال يطرحه المؤرخون الغربيون المعاصرون ويجيبون عليه بأنه كان ملكًا من ملوك الشرق الأدنى، بمهارة مميزة ولكن شهرته بالحكمة كانت تقوم على الرغبة بأن يكون فظًا غليظ القلب، وهكذا اختار أن يكون كملك ويتصرف كملك أثناء حياة والده داود، وبعد وفاة والده أصبح الحاكم الوحيد الذي لا ينازع على عرش مملكة اليهود، فقام بتبديل الحكومة واتجاهاتها، بعزل جميع الوزراء الذين كانوا في عهد داود، وقتل بعضهم من الذين كان يخشى معارضتهم لتصرفاته، كما أنه أجرى تغيرات هامة في السياسة العسكرية مذكرًا بتمرد "أبشالوم" على داود.

السفر الثاني لصموئيل يميز بين الجبايات القبلية القديمة ورجالات إسرائيل الذين دعموا الابن، والمرتزقة أو خدم داود الذين دعموا

الملك، وكان هؤلاء الخدم ذاتهم الذين أكدوا ولاءهم لسليمان ومكَّنوه من القضاء على خصومه فور توليه الحكم، في البداية فرض العمل الإجباري على المناطق الكنعانية وفي الجزء الشمالي من المملكة، واستعمل العمال المسخرين للخدمة في برامجه الإنشائية، كان داود جزءًا من النشاط والحيوية والنمو اليهودي، ولكن إذا كانت الإمبراطورية العظيمة التي أرسى قواعدها هو وابنه سليمان قامت على كاهل المرتزقة الذين تعامل معهم داود، وفضلهم على رجال البأس اليهود، فإن ابنه سليمان كان غنيًا أيضًا حيث أن والده داود قد نهب عددًا من المدن الكبرى لا تقل عن اثنتي عشرة مدينة، وهنا لا بد وأن نعود فنذكِّر برقم ١٢ السحري والرمزي عند اليهود، وهكذا جمع سليمان الذهب المنهوب من الفلسطينيين وخزنه في خزائنه التي عرفت فيما بعد بـ "كنوز الملك سليمان"، وهذا يؤكد أن داود لم يكن يتحلى بالأخلاق الدمثة وكذلك ابنه سليمان، فهما ليسا أكثر من لصين جمعا ثروة كبيرة نتيجة غزواتهما للمدن الفلسطينية في جنوب فلسطين والسطو على أموالها وممتلكاتها وذهبها.

واصل سليمان علاقته الطيبة مع الفينيقيين في لبنان وشمال فلسطين ودخل مع الملك "حيرام" في مدينة صور اللبنانية الحالية في مشاركة تجارية الأولى من نوعها في التاريخ القديم، ثم بنى سليمان أول مدينة بحرية لتكون ميناء على البحر الأحمر، وهي ما يعرف اليوم بميناء "إيلات" الإسرائيلي، وكان الملك حيرام بعث خبراءه ليبنوا

أكبر أسطول تجاري وبحارة من الفينيقيين ليقودوا سفن ذلك الأسطول، وعزز هؤلاء بجنود من اليهود، فكانت مشاريع سليمان التجارية أكثر المشاريع الضخمة الناجحة في ذلك العصر، وانتشرت شهرة سليمان إلى بابل ثم الهند، وكانت الأرباح التي حققها سليمان والملك "حيرام" كبيرة جدًا وفق التصور، وبمساعدة الحرفيين من أهل صور بنى سليمان الهيكل العظيم في القدس، الذي كان والده داود قد وضع مخططه.

وصفت التوراة سليمان بالملك الحكيم ولكن يبدو أن هذا الوصف لا ولن ينطبق على رجل جمع آلاف النساء زوجات له، الأمر الذي ينفي عنه الحكمة، كان سليمان يمثل الجيل الثاني في امتلاك الثروة حيث أن والده داود نهب وقتل وهزم إلى أن أقام إمبراطورية كبيرة، وقد ورث سليمان الثروة عن أبيه، ولكنه لم يرث عنه الحيوية والديناميكية، فأي دليل على ذكاء وإبداع داود، بمعنى أن سليمان لم يكن حكيمًا على الإطلاق ولم يؤلف ذلك الشعر في التوراة المسمى "حكمة سليمان"، فقد كان هذا السفر من أسفار التوراة قد كتب بعد وفاته وكانت الحكمة الاعتيادية لسليمان أنه كان الشخص اليهودي لنوعية الحكمة ذاتها، وعبر التاريخ قلب اليهود الحكمة باستمرار وبشكل لم يتوصل إليه أي شعب من شعوب الأرض نجاحًا لما يخرج من العصر الشبيه بالأسطوري، عصر الأبطال وأنصاف الإله نرى أن اليهود يميلون إلى تمجيد المعلمين والحكماء والعلماء والربانيين

الذين تكون فضائلهم الحكمة والمحبة، فكان ذلك يترسب عميقًا في ذهن سليمان بعض الحقيقة.

وهذا يؤكد أن اليهود ورثوا عن أجدادهم الأوائل مثل سليمان وداود التهويل والكذب واللصوصية، ولا غرابة أن نراهم اليوم يسرقون أرض الفلسطينيين، وينهبون بيوتهم وممتلكاتهم كما فعل ملوكهم من قبل الذين كوّنوا ثروات هائلة وكنوزًا لا زال العالم يصفها بعجائب كنوز سليمان التي احتوت على ما لا يخطر ببال البشر، وكانت من المنهوبات والمسروقات التي برع بها سليمان ووالده داود، علينا أن نلاحظ بأن نشيد الإنشاد الذي لسليمان في الكتاب المقدس لم يكتب إلا بعد وفاة سليمان بحوالي خمسمائة سنة، فكيف يسمى سفر "نشيد الإنشاد الذي لسليمان" وسليمان لم يكتب ذلك السفر في الكتاب المقدس.

كان المال في ذلك الزمان كما هو اليوم، فالمال يستطيع شراء كل شيء، وكذلك الذهب يستطيع أن يذلل العقبات، فكان المال والذهب متوفران لسليمان، الأمر الذي جعله قادرًا على استقدام آلاف المرتزقة ليشكل منهم جيشه، وأحضر مئات العربات وبهذا استغنى عن رجال البأس والحرب من اليهود، لأن عددهم كان قليلاً أولاً، وكانوا عبئًا عليه بسبب كبريائهم وجبروتهم، وكانوا يعرفون بـ "غبوريم" بمعنى الجبارين، ويوجد أعداد كبيرة من جيشه، فلم يكن

الإنتاج الزراعي يكفي لسد حاجاتهم الغذائية، وكانت اسطبلاته في مدينة "مجدو" الساحلية من أهم الاسطبلات في العالم، بل كانت من عجائب الدنيا، مدن بكاملها أقيمت لتخزين الشعير والحبوب الأخرى وكانت ألف امرأة غير كافية لتشبع شهوة سليمان، وجاءه من كل أنحاء العالم سواح ودبلوماسيون، حتى عدد من الملوك جاءوا ليروا بأنفسهم عجائب بلاطه، إلا أن كل هذه العظمة كانت على حساب شعبه ولم يكن شعبه كله من اليهود.

وبرغم هذا لم تكن ثروة سليمان بدون حدود، فكان لا بد من فرض الضرائب على الشعب، وعندما توفي تقدمت قبائل يشوع باحتجاج لابنه رحبعام حول الضرائب الباهظة إلا أنه لم يستجب لاحتجاجاتهم، الأمر الذي أدى بالتالي للتمرد وقيام ثورة وتمكنوا من عزله وتنصيب "يربوعام بن نباط" ملكًا عليهم، وبهذا انتهت إمبراطورية اليهود التي دامت في عهد داود وسليمان حوالي ٨٠ عامًا.

بدأ "حوسيا" النبي خطوة جديدة في تطوير "يهوه"، خلافًا لعاموس، فلم يقتنع حوسيا بغضب الإله وعدله حيث أن يهوه كان أيضًا إله المحبة والمصير الذي قرره لإسرائيل "السامرة"، لم يسرّه جدًا بل انعكس عليه بالأسف والحزن حيث أنهم شعبه المختار كما يدَّعون، وكان ذلك تطورًا جديدًا، الإله الذي لا يقدر البتة على تحويل دور التاريخ كما يقول "حوسيا" يهوه اللاإنسان واللاإنساني الذي توسل

إليه موسى، الإله الذي كان متقمصًا للطبيعة اللاحسية تحوَّل إلى إله يعرف معنى الألم والمعاناة، إله يقدر أن يبكي على مصير إسرائيل فيقول:

أحببته لما كان إسرائيل صغيرًا
ولما أخرجته من مصر وأسميته ابني
سمعوا صوتي فجاءوا من هناك
قدموا القرابين "للبعاليم"
حرقوا البخور تقربًا من الأصنام
علمت إفرايم الآخر ليخرج من ذلك المكان
تأبطهم من أذرعهم ولم يعرفوا أني أشفيتهم
سجنهم بحباله الرجال مواكب من الحب
وكنت معهم منذ نبذوا نير العبودية
وأعطيتهم الطعام ليأكلوا وينعموا بخيري.

إسرائيل الشمال قد ضاعت، حطمها الآشوريون إلى غير رجعة ومن هنا برزت أسطورة القبائل الأربعة، الذين اقتادهم الآشوريون إلى السبي، ولكن سقوط مملكة "يربعام" لم تكن عشر قبائل قد سبيت، الذين تم سبيهم فقط الطبقة الأرستقراطية من قبائل إفرايم ومنسّي وجاد في الجليل، أما الارستقراط من قبائل "آشر ونفتالي" فقد فروا والتجأوا إلى المدن الفينيقية المنيعة، الفلاحون والعبيد نهبوا المدن ودمرت والمنازل أحرقت، الأرستقراطية اختفت ليس من العالم ولكن

من الأفق اليهودي، لأنهم لم يكونوا يهودًا حقيقيين، ولكن كانوا يشتركون مع اليهود في اللغة والتاريخ تحت مظلة بني إسرائيل، أولئك الأرستقراطيون فضلوا الانخراط في المجتمعات الآشورية وأقاموا بينهم، وتدريجيًا وبسبب الفقر الذي أصاب الفلاحين ممن تبقوا في فلسطين ظهرت تدريجيًا ثقافة جديدة، ذكريات الإله يهوه وما حل بهم عندما أداروا له ظهورهم، رغبوا في استعادة قوانينه وتوراته وكانت أكبر القبائل المتبقية في فلسطين قبيلة "منسّي" التي حاولت إعادة بناء مملكة السامرة على أنقاض المملكة القديمة باتباع ولو خيط رفيع من الأمل عبر التاريخ وحتى هذا اليوم حيث يعيش في دولة إسرائيل الجديدة عدد قليل منهم وهم السامريون آخر بواقي قبيلة "يشوع" والمملكة التي بنوها وهدمها الآشوريون.

أما دور مملكة الجنوب والتي عرفت بمملكة "يهودا" والتي كانت في يوم من الأيام، وفي عهد الملك داود وابنه سليمان إمبراطورية مزدهرة، انكمشت لعدة مئات من الأميال المربعة في جبال وبعض ضواحي مدينة القدس، ويمكن للمرء أن يسير على الأقدام بين شروق الشمس وغروبها من بدايتها إلى نهايتها، وكانت تلك المملكة قد عاشت تلك العظمة حوالي ثلاثمائة عام، وعاشت فيها مجموعة من قبائل بني إسرائيل وغيرهم من الكينات والكلبيون واليمونيون والريزيون والبنيامينيون واليبوسيون الكنعانيون والفلسطينيون، وكان في القدس قطاع مصري وقطاع "حتّي" وقد تذوبت هذه الأجناس

في شعب واحد، إلا أن اليهودي كان يمتاز على باقي السكان بعلاقته مع الإله "يهوه" حسب أقوالهم، يهوه الذي عقد مع إسرائيل كما يقولون ميثاقًا عرف بـ "البريت"، ولم يكن اليهودي يشعر أنه منفصل عن الإله، ولكنه جزء من كل، وكان هذا بفضل أنبيائهم "عسيّا وحبقوق وجرميا"، وجميعهم أنبياء يهود وهم أنبياء مملكة يهودا، الملك في ذلك الزمان يمثل صوت النبي والمحرك للطمع والشر، مما يستدعي حكم "يهوه" وغضبه، ولكن كان هناك استثناءات قليلة جدًا.

قائمة ملوك الثلاثمائة عام تعيد إلى ذاكرة الإنسان المطلع على التوراة التي تفصل بدقة شخصياتهم المصابة بالغرور وداء العظمة واعتداءاتهم الدامية، وعلاقاتهم مع الملوك الآخرين الذين لوثوا البشرية عبر التاريخ، نذكر فيما يلي أسماءهم وفترات حكمهم، لا لسبب بل من باب التوثيق الزمني فقط:

١. رحبعام بن سليمان ٩٣٣- ٩١٧ قبل الميلاد.
٢. آبيه ٩١٧ – ٩١٥.
٣. آسا ٩١٥ – ٨٧٥.
٤. ياهوشافط ٨٧٥ – ٨٤٣.
٥. عطاليا ٨٤٣ – ٨٣٧.
٦. يهوعاش ٨٣٧ – ٧٩٨.
٧. آمازيا ٧٩٨ – ٧٨٠.

٨. غوريا ٧٩٠ – ٧٤٠.

٩. يوتام ٧٤٠ – ٧٣٦.

١٠. آحاز ٧٣٦ – ٧٢٠.

١١. حزقيا ٧٢٠ – ٦٩٢.

١٢. منسّي ٦٩٢ – ٦٣٨.

١٣. يأمون ٦٣٨ – ٦٣٧.

١٤. يوشيّا ٦٣٧ – ٦٠٩.

١٥. ياهويكيم ٦٠٩ – ٥٩٨.

١٦. يهيوخيم ٥٩٨ – ٥٩٧.

أما أخر ملوك مملكة يهودا فقد كان الملك "زدقيا"، هذه أسماء ملوك مملكة الجنوب من بعد عهد سليمان، إلى تاريخ سقوط القدس في أيادي الكلدانيين الذين ساقوا بني إسرائيل إلى بابل في سبي عرف بالسبي البابلي الثاني.

النبي "عسّيا" لا يعرف عن شخصيته الكثير ويقول أحبار اليهود في هذا أن الأنبياء يعرفون بأقوالهم وليس بمن كانوا، كل ما يعرف عن النبي عسّيا أنه كان ينحدر من عائلة ثرية ومن جذور الأرستقراطية اليهودية، وكان هو بذاته الذي نادى بمبدأ التوحيد، وهي الفكرة اليهودية الغامضة عن الإله، بدون رموز "يهوه" إله موسى الذي كان له مكان الصدارة في العقل اليهودي بين الآلهة العديدة، ولكن "يهوه" لم يناقض أو يناهض الآلهة الأخرى جميعها، على الرغم

obeikandl.com

من أن "عشتروت والثور" كانتا معتديتين على "يهوه" وعلى الكهنة اللاويين، ولكنهم قبلوا بعبادة النحوشتان الأفعى وأشبال الأسود (أبو الهول). بعض حكماء اليهود يعتقدون بأن "يهوه" كان الإله القديم لقبائل الكينات، وقد استدلوا على ذلك من أن هيكل سليمان تم تصميمه وبناؤه على شكل الأسد الرابض حتى أن صوت الإله "يهوه" يشبه زئير الأسود، كما يشاهد في هيكل سليمان من خلال تاريخ هذا الهيكل أن الإله "أبو الهول" أي الإله المعروف "بأمهات الأسود" يربض على جوانب الأفعى النحاسية الإله نحوشتان وأيضًا كان في الهيكل الإله "الثور" الخاص بالفلستينوس الذين جلبوه معهم من مكانهم القديم في جزيرة كريت، وكان ذلك للتأكيد على تذوب الفلستينوس في البيئة اليهودية.

obeikandl.com

§ الفصل السابع

النبي عسّيا

عندما ظهر النبي "عسّيا"؛ حطم هذه الآلهة الوثنية وفتح مرحلة جديدة في مبدأ الإله "يهوه"، ولأول مرة أشار فيها صوته إلى عدم وجود آلهة أخرى وأن يهوه هو اسم الإله المقدس، الإله الواحد، واعتقد "عسّيا" أن ما فعله الآشوريون بعد أن حطم الآشوريون مملكة الشمال أرسل الإله يهوه الطاعون على جيش سنحريب ملك آشور، فأبادهم وكان انتقام الإله يهوه لشعبه الذي فضله على سائر خلقه لأنه شعب جدير بتحمل المسؤولية كما يدَّعي أحبار يهود.

قام "عسّيا" بحث ودعم الملك "حزقيا" في القدس على تحطيم الآلهة الوثنية الموجودة في هيكل سليمان، وقد سمح له الملك بذلك، فجرجر الإله الأفعى "النحوشتان" وحطمه بالمعاول، ثم أذاب نحاسه أمام الجمهور، وقد شاهد الشعب ذلك دون أن تكون هناك نتائج انتقامية من النحوشتان كما كانوا يعتقدون، وحطم أيضًا الآلهة أم الأسود "أبو الهول"، وجرجر الإله الثور في التراب وحطمه وحطم كل أصنام الهيكل، إلى أن أصبح الهيكل خاليًا من كل هذه الآلهة لأول مرة، فلا آلهة محفورة ولا آلهة منقوشة بعد ذلك الوقت سوى

وجود الإله "يهوه" اللامرئي، ولم يأتِ ذلك من النبي "عسّيا" دون أن يسبب بغضًا وكراهية عند الكثيرين من معتنقي تلك الديانات الوثنية، لهذا قام نفر منهم وقتلوه، إلا أن صوت "يهوه" بقى هو الوحي الذي يتردد عبر القرون.

الشخصية التي يصفها أحبار اليهود بالعظيمة من الأنبياء تظهر على المسرح اليهودي بعد "عسّيا" كان "حبقوق" النبي، والمعروف عن هذا النبي ليس كثيرًا، إلا أنه يقال بإن دوره كان كبيرًا في كتابة سفر "تثنية الاشتراع" في التوراة، إلا أن هذا السفر كان قد كُتب قديمًا قبل عصر "حبقوق" بكثير، وهذا ليس المهم في نظر اليهود بل المهم هو تعريفه للإله "يهوه".

obeikandl.com

§ الفصل الثامن

النبي حبقوق والنبي جيرميا

قبل ستمائة سنة سبقت مولد السيد المسيح عليه السلام كان الشرق الأوسط يشهد تغيرات سياسية على نطاق واسع، وكانت القوة الأولى آنذاك الآشورية قد بدأت بالتراجع والوهن، وكانت هناك قوة جديدة تلوح في أفق الشرق الأوسط، وهي القوة الكلدانية التي عرفت "بالقوة البابلية" أمة مترابطة من حيث اللغة والعرق والتاريخ، وكان حبقوق في ذلك الوقت شأنه شأن أهل الفكر في زمانه؛ يرى أن أية قوة جديدة وكبيرة في الشرق الأوسط لا بد أن تتطلع إلى القدس، حيث كانت هذه المدينة حلقة الوصل بين قوافل التجارة بين الشرق والغرب، إذ كانت تربط بلاد الرافدين بوادي النيل وشمال أفريقيا، وكانت القدس القلعة الضخمة التي يطمع بالوصول إليها كل حاكم قوي، وكانت الصخرة المنيعة التي تتحطم عليها معظم القوى، وكان اليهود يعدّون الشوكة في تلك الصخرة المتينة، فقد توقع حبقوق أن يقوم الكلدانيون بغزو القدس بهدف التحكم في الممرات التجارية، وكانت النتيجة حتمية كما توقع، لقد كان حبقوق عرَّافًا وفيلسوفًا، وقد سافر إلى بابل ليقيم علاقات طيبة مع ملك بابل "نبوخذ نصر" ونجح في هذه المهمة، وكان تأثره بالبابليين عظيمًا

حيث استعمل الطرق البابلية في قراءة النجوم، نظرته كانت عالمية، فأراد اليهود والبابليون أن يكونوا أبناء الإله، وكان حبقوق يقول للناس إن "يهوه" إله عادل وأنه إله كوني وعدله كوني، لا يفرق بين يهودي وبابلي، فكلهم أبناء الله.

هكذا كانت تعاليم النبي حبقوق وهكذا كان وتطور الأخلاق البشرية وتطور الإله "يهوه" معها حيث لم يعد إله حرب كما كان، ولم يعد يستعمل بني إسرائيل أداة حرب ولم يعد يتقدم رؤوس الحرب في تابوت العهد كما كان يفعل، وهكذا حرر حبقوق الإله يهوه من الآلهة الأخرى ومن الهيكل ومن تلال يهودا وأعلنه لجميع الناس، وأصبح اليهود في زمانه على بداية طريق عقيدة التوحيد، والتوحيد في أعلى درجاته هو مبدأ الإله يهوه في وحدة جميع المخلوقات.

تأثر حبقوق كثيرًا بتعاليم النبي "عسّيا"، وفي عهده ظهر نبي آخر اسمه "جرميا"، التقى جيرميا مع حبقوق وتعلم منه الكثير وتعاون حبقوق مع جيرميا في تحطيم أصنام الهيكل والقضاء على الآلهة الوثنية، ورفضا أن يعتقد اليهود بأن الإله "يهوه" اختارهم على بقية خلقه ليكونوا الطائفة التي تسيطر على العالم كله، وليس فقط منطقة يهودا أو فلسطين، وهنا أيضًا لا نستغرب سيطرتهم على دول العالم، خصوصًا العظمى منها في هذا الزمان، ولا نستغرب محاولاتهم لحكم العالم، بإقامة دولة العالم الواحدة الواردة في المخططات الصهيونية المعاصرة، وفي امتلاكهم للطاقة النووية

المدمرة، التي ستمكنهم من تحقيق هذا الهدف مستقبلاً. وهذه كانت وجهة نظر "جيرميا" الذي قاسى من عذاب الشك والخوف وهو يبحث عن الحقيقة ويقولها مهما كان الثمن عاليًا. "عسيا" وحبقوق وضعا الأبعاد النهائية للإله "يهوه"، طهَّرا الهيكل وحل محل الأوثان وجود الإله "يهوه"، ولكن بحديث وفكر ذلك الزمان، كان الوجود اللامرئي للإله ميثاقًا يقولون إنه لا زال قائمًا.

لقد أقر جيرميا سياسيًا بحتمية بابل وحث اليهود على عدم معارضة أي غزو كلداني للقدس، وحثهم على أن يسلموا المدينة لهم دون مقاومة، لكي لا يحولوا مدينة يهوه إلى مجزرة تحت تأثير اعتقادهم بأنهم يفعلون ذلك بإرادة الإله يهوه، ولكن اليهود قاوموا بابل، وسقطت القدس ودخلتها جيوش نبوخذ نصر، إلا أن اليهود لم يذبحوا كما كانوا يتوقعون، ويذكر أن عدد سكان القدس من اليهود في ذلك الوقت كان ربع مليون حسب الإحصاءات التاريخية، وبدلاً من تعذيب الأهالي والانتقام منهم قام نبوخذ نصر بسبي الطبقة الأرستقراطية منهم فقط، أما أرقام السبي الواردة في التوراة فهي مختلفة، ففي سفر "جيرميا" ورد الرقم ٣٠٢٣ يهوديًا تم ترحيلهم من القدس إلى بابل علمًا بأن عددهم كان ٤٦٠٠ ويبدو أن جيرميا أحصى من هم فوق سن ١٣ سنة، أما العدد الوارد في سفر الملوك فهو أكبر بكثير فقد وصل إلى ٣٥٠٠٠ بما فيهم الرجال والنساء والأطفال، وقد سبى نبوخذ نصر الأرستقراطيين والحرفيين والفنيين

والأطباء والكهان، أي جميع من لديهم مهارات معينة والمتعلمين، ولم يبقَ في أودية القدس سوى الفلاحين الفقراء، هكذا سبي اليهود إلى بابل، في الوقت الذي كانت فيه أثينا وروما قريتين يلفهما الظلام ولم تكن الحضارة قد وصلت بعد إلى أوروبا المركزية التي كانت تقطنها القبائل الآرية.

- نبوخذ نصر ملك بابل -

الفصل التاسع

المنفى

المنفى بالضرورة يعني بالنسبة لليهود الانقطاع عن ماضي القبائل اليهودية الأخرى التي لم تتعرض للسبي، كما حدث ليهودا والسامرة، يقول أنبياء بني إسرائيل "حزقيال وحوسيا وعيسيا وجرميا"؛ إن المصائب التي حلت باليهود كانت نتيجة لخطيئة اليهود في مخالفة القانون (التوراة)، وحيث أن التاريخ القديم والنبوءات كانت قد أقيمت على أساس "الخطيئة الجماعية" أو "الذنب الجماعي" ونسبت إلى الملوك والقيادات الشرور التي جلبت لبني إسرائيل الغضب الإلهي، واليهود ليس لديهم من يوجهون له اللوم وتحميله المسؤولية، إذ تقع المسؤولية الأولى على أنفسهم لما اقترفوه من آثام، وقد كتب حزقيال في هذا أنه لم تعد معاقبة الناس جماعيًا من أجل آثام القادة أو الجيل الحالي لآثام أسلافهم، فالآباء يأكلون الحصرم والأبناء تتلف أسنانهم، ولم يعد ذلك المثل مقبولاً، فقد أخبر الله "حزقيال" بأن كل واحد من بني إسرائيل كان مسؤولاً أمامه وأن الروح التي تقترف ذنبًا يجب أن تموت.

فكرة الفردية كانت دائمًا في العقيدة الموسوية، وحسب الاعتقاد الموروث فإن كل رجل وكل امرأة قد خلقوا على هيئة الله - كما يعتقدون وكما هو مدون في توراتهم - وأكد ذلك بقوة حزقيال النبي وكان حزقيال قد وصل إلى الدرجة القصوى بالقناعة بهذا التصور، بعد ذلك أصبحت خلاصة العقيدة اليهودية من مسؤوليات الفرد اليهودي.

نتائج كثيرة انبثقت عن هذه القصوية، فبين عام ٧٣٤ وعام ٥٨١ قبل الميلاد كان هناك ترحيل لستة من الإسرائيليين، وكثيرًا منهم فرّوا إلى مصر ومناطق أخرى في منطقة الشرق الأدنى، منذ ذلك الوقت فصاعدًا أصبح أغلب اليهود يعيشون خارج ما يسمونه أرض الميعاد، تشتتوا وأصبحوا بدون قيادة وبدون كيان ولا دولة، فكان عليهم أن يجدوا الوسائل البديلة للمحافظة على هويتهم الاجتماعية، فعادوا إلى كتاباتهم وإلى قوانينهم وسجلاتهم التي تدون ماضيهم، ومنذ ذلك الحين أصبح العالم يسمع عن مدونين أكثر، وقد ركزوا في كتاباتهم على التقاليد الشفهية، وأخذوا ينسخون المخطوطات القديمة الثمينة التي أحضروها معهم من الهيكل المدمر، وقد لاقى اليهود معاملة حسنة في بابل، حيث أن المنفى كان حلقة وصل لجهود التدوين، فالكتابات والألواح التي وجدت بقرب بوابة عشتار في مدينة بابل القديمة حصصا دفعت للأسرى وتشمل "يوخين" ملك أرض "ياهود" وهو "يوهايوكيم"، بعض اليهود أصبحوا هناك

تجارًا، وأول قصص تحكي نجاحات اليهود في الشتات كتبت هناك، التجارة والثروة موّلت جهود التدوين، وحافظ اليهود في منفاهم على البقاء على دينهم، فإذا كان الفرد مسؤولاً عن طاعة القانون فإنه ينبغي أن يعرف ما هو القانون، فالمسألة ليست اللمس والنسخ بل التعلم والدراسة أيضًا.

من هنا كان اليهود العاديون منضبطين في الممارسات الاعتيادية لدينهم، والختان الذي يميزهم بصورة لا تغيب عن غيرهم من ما يسمونهم "الكفرة" والمحيطين بهم، غير اليهودي في نظرهم يعتبر كافرًا ويتعاملون معه على أساس هذا الاعتقاد، وكانوا يصرّون على ذلك بشدة، إلى أن أصبح هذا مرسومًا وجزءًا من دورة حياة اليهودي وطقوسه الدينية، مبدأ السبت تقوى كثيرًا بما تعلمه اليهود من علم الفلك البابلي الذي أصبح يشكل جزءًا من الأسبوع اليهودي و"شبتاي" كان الاسم الأكثر شيوعًا والذي اخترعه اليهود خلال فترة المنفى.

كانت مدة المنفى في بابل قصيرة، بمعنى أنها دامت قرابة نصف قرن فقط بعد سقوط يهودا، فيما كانت قوة خلاقة قائمة، وهنا نأتي إلى نقطة هامة في التاريخ اليهودي، فاليهود كانوا يتمنون أن يطول السبي البابلي، لأنهم تمكنوا خلال فترته أن يجمعوا ثروات هائلة، وأصبح منهم التجار والحرفيين على أعلى المستويات، حيث أن نبوخذ نصر كما سبق وأسلفنا عاملهم معاملة حسنة وفتح لهم

باب العمل، وأقام لهم مساكن جميلة في أرقى أحياء بابل، ولم يكن سبيًا بمعنى السبي، بل كان إبعادًا عن مدينة القدس لتخليصها من سيطرتهم على مراكز التجارة بين أفريقيا وأسيا، ويلاحظ أنه عندما سمح لهم الإمبراطور الفارسي "قورش" بالعودة إلى يهودا رفض الكثيرون منهم العودة، وفضلوا البقاء في العراق، ولم يعودوا إلى القدس التي كانوا يتغنون بها، إذ وجدوا في بلاد الرافدين مجالاً أوسع للإثراء، حتى الذين غادروا العراق تحت تأثير الإغراءات الإسرائيلية بعد قيام دويلة إسرائيل عام ١٩٤٨، يشعرون أنه قد غُرر بهم ويتمنون العودة إلى العراق الذي يتوقون إليه، وكما لاحظنا مسبقًا أنه كان هناك صراع موروث بين العقيدة ودولة إسرائيل، بالمفهوم الديني كانت هناك أربع فترات سابقة كبيرة في تاريخ اليهود، فترة إبراهيم الخليل وفترة موسى خلال وبعد المنفى بوقت قصير، وبعد دمار الهيكل الثاني، الفترتان الأخيرتان تطورتا وهذبتا أو نقتا العقيدة لتصبح اليهودية عينها، ولكن ما كان في فترة من هذه الفترات لليهود دولة مستقلة.

في سلسلة الأحداث التي لازمت اليهود عبر تاريخهم لم يكن أكثر أهمية من السبي البابلي الثاني، فلقد ذهب اليهود إلى هناك كممثلين إقليميين للاتحادات القبلية غير المعروفة التي عاشت في القدس والتلال القريبة منها، وبعد سبعين عامًا تحرروا من ذلك السبي على أيادي الإمبراطور الفارسي "قورش بن احشيورش الاخميني"،

وكان يهود السبي البابلي قد أصبحوا نتيجة ذلك السبي يهود متحضرين.. كيف كان ذلك! إنها قصة من أكثر القصص إثارة في التاريخ القديم الذي طمسه اليهود وحاولوا إنكار الحقيقة.

قبل كل شيء تجدر الإشارة هنا إلى أن بابل لم تكن مكانًا غريبًا على اليهود، فهي بالنسبة لهم كما هو الحال بين انجلترا وأستراليا أو كندا، فقد كان اليهود يعتبرون بابل مهد الحضارة الأساسي للإنسان وهي التي تضم برج بابل ومكان نوح وجنة عدن، وهي فوق ذلك كله المكان الأصلي لأساطيرهم المحببة، منها كما يعتقدون جاء إبراهيم الخليل، الجد الأعلى لكل القبائل التي اصطلح العلماء على تسميتها خطأ "القبائل السامية" غرب نهر الفرات أجداد إسرائيل، كان البابليون يتكلمون لغة لا تختلف كثيرًا عن لغة اليهود، وكانت اللغتان العبرانية والآرامية متقاربتين في كثير من مناطق بلاد الرافدين، أما الحقيقة هي أن لغة اليهود المعروفة بالعبرانية هي في أساسها تكوينها "آرامية" خالصة، وقد دونت التوراة بهذه اللغة لدرجة أن لغة التوراة لا زالت تعرف بـ "آرامية التوراة" إلى يومنا هذا، أما الخط العبراني المربع المستعمل في التوراة فهو خط آشوري في أصله، اقتبسه اليهود من الآشوريين ونسبوه لأنفسهم وإن لغتهم الحالية هي مزيج من الآرامية والكنعانية العربيتين القديمتين.

في كل فترة من فترات التطور اليهودي كان هناك يهودًا يسافرون إلى بابل ويحضرون معهم قصص الجمال وما عليه بابل من العظمة والفخامة في أسوارها التي يبلغ طولها ٥٥ ميلاً والشوارع العريضة والجميلة، والقصور ذات البهاء المبنية من الرخام، والحدائق المعلقة والتي اعتبرت من عجائب الدنيا السبعة، حاول اليهود الاقتباس من بابل وبناء القدس بذات الجمال والديكور البابلي، فبنوا ليس بيوتهم فقط بهذه الصورة؛ بل أقاموا البرك والحدائق والأروقة على غرار بابل، فكانت القدس نسخة مصغرة عن بابل تقريبًا.

أما البابليون من جانبهم فقد عاملوا اليهود باحترام كبير، حقيقة أن نبوخذ نصر كان لا يرحم في تعامله مع أولئك الذين قادوا المقاومة والتمرد ضد بابل عندما غزا القدس، إلا أن القدس استسلمت له وعقد ميثاقًا مع "زدقيا"، ثم عيَّنه ملكًا على القدس، ووقع معهم معاهدة للتعاون والصداقة وعدم الإساءة للإمبراطورية الكلدانية، غير أن زدقيا عاد فنقض تلك المعاهدة وقاد تمردًا، مما أجبر نبوخذ نصر على محاصرة المدينة واحتلالها وأصدر حكمًا بإعدام أبناء زودقيا الثلاثة أمام عينيه، ثم حكم على زدقيا بفقئ عينيه وأن يقضي بقية حياته في السجن، كما حكم على ٨٠ آخرين من نبلاء اليهود من الذين شاركوا في التمرد بالإعدام، ونفذ حكمه فيهم على الفور.

يقول المؤرخون المعاصرون إن هذه كانت أقصى درجات البربرية عند نبوخذ نصر، إلا أنه لم يتخذ أي قرار تعسفي ضد ٣٥٠٠٠ من اليهود الذين كانوا سباياه ولم يعاملهم معاملة الأعداء، أرادهم نبوخذ نصر خارج القدس فقط حيث لم يكن يريد تحصينات يهودية للمدينة القوية التي تتحكم بالطرق التجارية بين مصر والقارة الآسيوية، فلقد عامل الأسرى بكل لطف واحترام، وكانت القوافل التي حملتهم عبر الصحراء إلى بابل مزودة بكل أنواع الطعام والماء، ولم يقاس اليهود أي عذاب أو مشقة في رحلتهم من القدس إلى بابل، وفي بابل بنى لهم مساكن جيدة وحديثة في أحسن مناطق المدينة وزرع لهم أشجار الفواكه من كل الأصناف، وكروم العنب، وسمح لهم بالاحتفاظ بذهبهم ومجوهراتهم التي أحضروها معهم من القدس، ولم يعتدِ على حرياتهم الدينية، بل أكرمهم أحسن إكرام، وبرغم هذا الإكرام كان اليهود يتوقون دائمًا للعودة إلى القدس التي أحبوها.

خلال السنوات السبعين التي عاشوها في المنفى في بابل؛ انصقل اليهودي وأصبح إنسانًا حيًّا، وبعبارة أصح بدأ يكون إنسانًا، فهناك في بابل دوَّن اليهود "التوراة" واستعملوا اللغة الآرامية والخط الآشوري المربع في تدوينها، وفي بابل تعلم الحرفيون اليهود الفنون المعمارية والهندسية التي برع فيها البابليون، وفي بابل بدأ اليهود يعودون إلى الإله يهوه بعد أن اعتقدوا أنه كان يسكن هيكل سليمان، وقد دُمِّر الهيكل ولم يعد له مكان، وأنه لم يرافقهم في

سبيهم إلى بابل، فاعتقدوا أنه نقض ميثاقه معهم، ولهذا بدأوا يعودون إلى الإيمان به من جديد، وقد وردت أحاديثه لموسى في التوراة التي دونوها هناك.

بعد عودتهم إلى فلسطين في عهد الإمبراطور الفارسي "قورش"؛ أعادوا كتابة التوراة في "طبريا" بفلسطين، وأدخلوا إلى لغتها مفردات عديدة من الكنعانية العربية، فأصبحت التوراة التي نقرأها اليوم مزيجًا من العربيتين القديمتين، (بنات العربية الأم) الآرامية والكنعانية، بالخط الآشوري المربع.

obeikandl.com